سلسلة مؤلفات

الشيخ / عبدالله بن عمر بن دهيش

(١)

تفسير سورة الفاتحة

طبع على نفقة ابنه

الدكتور / عبدالملك بن دهيش

مكة المكرمة

١٤١٨هـ/١٩٩٨م

تفسير سورة الفاتحة

الطبعَة الأولى

١٤١٨هـ/١٩٩٨م

يطلب من
مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة
مكة المكرمة - هاتف: ٥٧٤٤٥٩٥

دار خضر
للطباعة والنشر والتوزيع
ص ب: ١٣/٦١٤١
بيروت، لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله .

وبعد :

فأن خير ما صرفت له الهمم ، وأعظم ما انفقت فيه الأوقات ، هو الاهتمام بكتاب الله تعالى ، تلاوة وتدبراً وفهماً ، وتعلماً وتعليماً .

ولقد عرف سلفنا الصالح ذلك فشمروا عن سواعد الجد ، فتأملوا كتاب الله سبحانه ، وتدبروا آياته ، ثم أخرجوا لنا الكتب المليئة بالكنوز والمعارف وبينوا لنا ماتحويه الآيات من اللطائف .

ثم جاء الخلف فاستفادوا مما كتبه الأولون وأفادوا ، ونظموا ثم شرحوا ووضحوا ، فجاءت كتاباتهم تتميماً لمن سبقهم وتكميلاً ، وتأسيساً وتأصيلاً وكل هذا عمل جليل يشكر عليه السابقون . كما يحمد عليه اللاحقون .

وإن سماحة الوالد عبدالله بن عمر بن دهيش ـ طيب الله ثراه ـ الذي نهل من علوم القران وعمل ، وقرأ وتدبر وتمهل ، نظر فى القرآن عموماً ، وفى سورة الفاتحة خصوصاً فوجد فيها من المعانى العميقة ، والا[illegible] الدقيقة مما لايدركه إلا أرباب العقول السليمة ، والقلوب المستقيمة ، فـ[illegible] أن

يجمع فوائدها، ويقيد شواردها، فألف ـ رحمة الله ـ كتابًا قيمًا في تفسير سورة الفاتحة، استخرجه من كتب كثيرة ومؤلفات جليلة، فرأينا ـ حتي لانكون من كاتمي العلم ـ أن لايظل هذا الكتاب حبيس الخزائن، وأن لايحرم منه طلاب الحقائق .

فاستخرت الله في إخراج هذا الكتاب المستطاب، وسألت الله تعالى أن يعينني ويجزل لي الثواب، فأنشرح صدري لذلك، رجاء ماعند الله هنالك .

ولما استقرت الهمة على إخراجه، راجعته مرات عديدة فأصلحت ماوقع فيه من أخطأ، أثناء نسخ الوالد له على الآلة الكاتبة، ثم أرجعت الآيات إلى سورها وأرقامها؛ والأحاديث إلى كتبها ومخرجيها، وإلى أغلب الموضوعات فاشرت في الهامش إلى الكتب التي أخذ الوالد ـ رحمه الله ـ عنها .

فجاء ـ بحمد الله ـ في ثوب قشيب، ومنظر يعجب الفطن اللبيب

والله المسئول أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، أنه رؤوف رحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

د/عبدالملك بن عبدالله بن دهيش

تفسير الفاتحة

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هذه السورة العظيمة هي فاتحة الكتاب.

قال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية رحمه الله (٦٦٤ ـ ٧٢٨هـ) : « ثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس قال : « بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته »[١]، وفي بعض الأحاديث : « إن فاتحة الكتاب أعطيتها من كنز تحت العرش » .

وهذه السورة هي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني والقرآن العظيم وهي الشافية وهي الواجبة في الصلوات لا صلاة إلا بها[٢].

وهي الكافية تكفي من غيرها ولايكفي غيرها عنها.

والصلاة أفضل الأعمال؛ وهي مولفة من كلم طيب، وعمل صالح، أفضل كلمها الطيب وأوجبه القرآن، وأفضل عملها الصالح وأوجبه

---

(١) مسلم (٦) مسافرين (٤٣) باب فضل الفاتحة (٨٠٦) : ١ / ٥٥٤ .

(٢) انظر : مسند الإمام أحمد : ٢ / ٤٢٨ ، وانظر : فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ١٤ / ٥ .

السجود، كما جمع بين الأمرين في أول سورة أنزلها على رسوله، حيث أفتتحها بقوله تعالى: ﴿ أقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ وختمها بقوله: ﴿ واسجد واقترب ﴾[١] فوضعت الصلاة على ذلك أولها القراءة وآخرها السجود[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: وأما حديث فاتحة الكتاب، فقد ثبت في الصحيح عن النبيﷺ أنه قال: « يقول الله تعالى: « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ماسأل. فإذا قال العبد: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال: هذه الآية بيني وبين عبدي، ولعبدي ماسأل. فإذا قال: ﴿ إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال: هؤلاء لعبدي ولعبدي ماسأل.

فقد ثبت بهذا النص أن هذه السورة منقسمة بين الله وبين عبده، وأن هاتين الكلمتين مقتسم السورة فـ﴿ إياك نعبد ﴾ مع ما قبله لله، وإياك نستعين مع ما بعده للعبد، وله ما سأل.

---

(١) سورة العلق: أول آياتها وآخرها.

(٢) الفتاوى: ١٤/ ٥ - ٦.

(٣) المرجع السابق: ١٤/ ٤، ٧.

ولهذا قال من السلف : نصفها ثناء ونصفها مسألة، وكل واحد من العبادة، والاستعانة دعاء، واذا كان الله قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين في كل صلاة، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه إذ ايجاب القول الذي هو إقرار واعتراف ودعاء وسؤال هو ايجاب لمعناه ليس إيجاباً لمجرد لفظ لا معنى له، فإن هذا لا يجوز أن يقع، بل ايجاب ذلك أبلغ من إيجاب مجرد العبادة والاستعانة .

فان ذلك قد يحصل أصله بمجرد القلب أو القلب والبدن، بل أوجب دعاء الله عز وجل ومناجاته وتكليمه ومخاطبته بذلك ليكون الواجب من ذلك كاملا صورة ومعنى بالقلب وبسائر الجسد .

وقد جمع الله بين هذين الأصلين الجامعين ايجابا وغير ايجاب في مواضع، كقوله تعالى في آخر سورة هود : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[١] .

وقول العبد الصالح شعيب : ﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[٢] .

وقول إبراهيم والذين معه ﴿ ربنا عليك توكلنا واليك أنبناوإليك المصير ﴾[٣] .

---

(١) سورة هود : الآية ١٢٣ .

(٢) سورة هود : الآية ٨٨ .

(٣) سورة الممتحنة : الآية ٤ .

وقوله سبحانه إذا أمر رسوله يقول : ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله الا هو عليه توكلت واليه متاب ﴾[١] .

فأمر نبيه بأن يقول : على الرحمن توكلت وإليه متاب ، كما أمره بهما في قوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ، والأمر له أمر لأمته .

وأمره بذلك في أم القرآن وفي غيرها لأمته ليكون فعلهم ذلك طاعة لله وامتثالا لأمره، ولا يتقدموا بين يدي الله ورسوله ولهذا كان عامة ما يفعله نبينا ﷺ والخالصون من أمته من الأدعية والعبادات وغيرها إنما هو بأمر من الله بخلاف من يفعل ما لم يؤمر به وان كان حسنا أو عفوا وهذا أحد الأسباب الموجبة لفضله وفضل أمته على من سواهم .

وفضل الخالصين من أمته على المشوبين الذين شابوا ما جاء به بغيره كالمنحرفين عن الصراط المستقيم[٢] .

إما أن يأتي بهما ، وإما أن يأتي بالعبادة فقط ، وإما أن يأتي بالاستعانة فقط ، وإما أن يتركها جميعًا .

ولهذا كان الناس في هذه الأقسام الأربعة ، بل أهل الديانات هم أهل هذه الأقسام ، وهم المقصودون هنا بالكلام .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٣٠ .

(٢) الفتاوى : ١٤/ ٩ .

قسم يغلب عليه قصد التأله لله ومتابعة الأمر والنهي والإخلاص لله تعالى، واتباع الشريعة في الخضوع لأوامره وزواجره وكلماته الكونيات؛ لكن يكون منقوصًا من جانب الاستعانة والتوكل، فيكون إما عاجزًا وإما مفرطًا، وهو مغلوب إما مع عدوه الباطن، وإما مع عدوه الظاهر، وربما يكثر منه الجزع مما يصيبه، والحزن لما يفوته، وهذا حال كثير ممن يعرف شريعة الله وأمره، ويرى أنه متبع للشريعة وللعبادة الشرعية، ولايعرف قضاءه وقدره، وهو حسن القصد طلب للحق، لكنه غير عارف بالسبيل الموصلة والطريق المفضية .

وقسم يغلب عليه قصد الاستعانة بالله والتوكل عليه ، وإظهار الفقر والفاقة بين يديه ، والخضوع لقضائه وقدره وكلماته الكونيات ؛ لكن يكون منقوصًا من جانب العبادة وإخلاص الدين لله ، فلا يكون مقصوده أن يكون الدين كله لله ، وإن كان مقصوده ذلك فلا يكون متبعًا لشريعة الله عز وجل ومنهاجه ، بل قصده نوع سلطان في العالم ، إما سلطان قدرة وتأثير، وإما سلطان كشف وإخبار ، أو قصده طلب مايريده ودفع مايكرهه بأي طريق كان ، أو مقصوده نوع عبادة وتأله بأي وجه كان همته في الاستعانة والتوكل المعينة له علي مقصوده ، فيكون إما جاهلاً ، وإما ظالمًا تاركًا لبعض مأمره الله به ، راكبًا لبعض مانهي الله عنه ، وهذه حال كثير ممن يتأله ويتصوف ويتفقر ، ويشهد قدر الله وقضاءه ، ولايشهد أمر الله ونهيه ، ويشهد قيام الأكوان بالله وفقرها إليه ، وإقامته لها ولايشهد ما أمر به وما نهى عنه ، وما الذي يحبه الله منه ويرضاه ، وما الذي يكرهه منه ويسخطه

.ولهذا يكثر في هؤلاء من له كشف وتأثير وخرق عادة مع إنحلال عن بعض الشريعة ، ومخالفة لبعض الأمر ، وإذا أوغل الرجل منهم دخل في الاباحية والإنحلال ، وربما صعد إلى فساد التوحيد فيخرج إلى الاتحاد والحلول المقيد ، كما قد وقع لكثير من الشيوخ ، ويوجد في كلام صاحب (منازل السائرين) وغيره مايفضي إلى ذلك(١) .

وقسم ثالث معرضون عن عبادة الله وعن الاستعانة به جميعاً .

والناس فريقان : أهل دنيا وأهل دين ، فأهل الدين منهم هم أهل الدين الفاسد الذين يعبدون غير الله ، ويستعينون بغير الله بظنهم ، وهم أهم ﴿ إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾(٢) .

وأهل الدنيا منهم الذين يطلبون مايشتهونه من العاجلة بما يعتقدونه من الأسباب .

ويجب التفريق بين من قد يعرض عن عبادة الله والاستعانة به ، وبين من يعبد غيره ويستعين بسواه(٣) .

والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق وجعل الايمان في القلب وتحبيبه أي تزيينه في قلبه، وجعله مؤثرا له راضيا به راغبا فيه وهما هدايتان

---

(١) الفتاوى : ١٤ / ١٠-١١ .

(٢) سورة النجم : الآية ٢٣ .

(٣) الفتاوى : ١٤ / ١٢ .

مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما ؛ وهما متضمنتان تعريف مالم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، والهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطنًا، ثم خَلْقُ القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم ادامة ذلك لنا، وتثبيتنا عليه الى الوفاة .

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة وبطلان قول من يقول اذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية ؟

فإن المجهول لنا من الحق اضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده أوأكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر .

ونحن محتاجون الى الهداية التامة فمن كملت له هذه الأمور، كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام .

وللهداية مرتبة أخرى ـ وهي آخر مراتبها ـ وهي الهداية يوم القيامة الى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها، فمن هدى في هذه الدار الي صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته، ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط، يكون سيره على ذاك الصراط، فمنهم من يمر كالبراق، ومنهم من يمر كالطوف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يحبو حبوا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار .

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القُذَّة بالقُذَّة جزاء وفاقا ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾[١] .

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجَنَبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[٢] .

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر .

الموضع السابع ـ من معرفة نفس المسئول وهو الصراط المستقيم، ولا تكون الطريق صراطًا، حتى تتضمن خمسة أمور الاستقامة، والايصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة .

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن ايصاله إلى المقصود، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته واضافته إلى المنعم عليهم ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعينه طريقًا .

---

(١) سورة النمل : الآية ٩٠ .

(٢) سورة فصلت : الآية ٤٦ .

والصراط تارة يضاف إلى الله إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله تعالى: ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما ﴾[١] وقوله: ﴿ وانك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله ﴾[٢].

وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوب لهم وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال، فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة، لأن العبد إما أن يكون عالمًا بالحق أو جاهلا به، والعالم بالحق إما أن يكون عاملا بموجبه أو مخالفًا له.

فهذه أقسام المكلفين، لا يخرجون عنها البتة، فالعالم بالحق العالم به هو المنعم عليه، وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المفلح ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾[٣] والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه، والجاهل بالحق هو الضال، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل، فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العلم بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به، ومن هنا كان اليهود أحق به، وهو متغلظ في حقهم كقوله تعالى في حقهم

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢) سورة الشورى: الآيتان ٥٢ - ٥٣.

(٣) سورة الشمس: الآية ٩.

﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب ﴾[١] .

قال تعالى : ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله؟ من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ﴾[٢] .

والجاهل بالحق أحق باسم الضلال ومن هناك وصفت النصارى به في قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾[٣] فالأولى في سياق الخطاب مع اليهود، والثانية في سياقه مع النصارى .

وفي الترمذي وصحيح ابن حبان من حديث عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون »[٤].

ففي ذكر المنعم عليهم، وهم من عرف الحق واتبعه، ضُلال والمغضوب عليهم، وهم من عرفه واتبع هواه، والضالين وهم من جهله، ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة، لأن انقسام الناس الى ذلك هو الواقع المشهود وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة، وأضاف النعمة إليه، وحذف فاعل

(١) سورة البقرة : الآية ٩٠ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٠ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٧٧ .

(٤) الترمذي : ٢٩٥٤ ، وابن كثير : ١ / ٣٠ .

الغضب لوجوه منها : أن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام، والعدل والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه، وحذف الفاعل في مقابلتهما، كقول مؤمني الجن ﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾[١].

ومنه قوله الخضر في شأن الجدار واليتيمين ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ﴾[٢].

وقال في خرق السفينة ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾[٣]، ثم قال بعد ذلك ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾[٤].

وتأمل قوله تعالى ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾[٥].

وقوله ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾[٦].

وقوله ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾[٧].

---

(١) سورة الجن : الآية ١٠ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٨٢ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٧٩ .

(٤) سورة الكهف : الآية ٨٢ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٨٧ .

(٦) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٧) سورة النساء : الآية ٢٣ .

ثم قال ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾[١] .

وفي تخصيصه لأهل الصراط بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم، واما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكفار، فكل الخلق في نعمه .

وهذا فصل النزاع في مسألة هل لله على الكافر من نعمة أم لا ؟ فالنعمة المطلقة لأهل الايمان، ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى : ﴿ وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار ﴾[٢] . والنعمة من جنس الإحسان، بل هي هي .

والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر والمؤمن والكافر، وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون .

الوجه الثاني أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[٣] .

فأضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقًا ومجرى للنعمة، وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه .

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٤ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٤ .

(٣) سورة النحل : الآية ٥٣ .

فكان في لفظة المغضوب عليهم بموافقة أوليائه له من الدلالة على تفرده بالانعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها، ما ليس في لفظة المنعم عليهم .

وتأمل سراً بديعًا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره، فإن الانعام عليهم يتضمن انعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح وهي الهدى ودين الحق، ويتضمن كمال الانعام بحسن الثواب والجزاء .

فهذا تمام النعمة ولفظ ﴿ أنعمت عليهم ﴾ يتضمن الأمرين، وذكر غضبه على المغضوب عليهم، يتضمن أيضا أمرين : الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان .

والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه فانه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكان الغضب عليهم مستلزمًا لضلالهم، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه، فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام واقتضاه في غاية الايجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة وحذفه في أهل الغضب، وإسناد الفعل الى السبب في أهل الضلال .

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة والغضب والضلال فذكر المغضوب عليهم والضالين في مقابلة المهتدين المنعم عليهم، وهذا كثير في القرآن

يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح؛ فالثاني كقوله ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[١] .

وقوله ﴿ أولئك لهم الامن وهم مهتدون ﴾[٢]

والأول كقوله تعالى ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾[٣] .

وقوله ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾[٤] .

وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله ﴿ فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾[٥] .

فهذا الهدى والسعادة ثم قال ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك إليوم تنسى ﴾[٦]، فذكر الضلال والشقاء، فالهدى والسعادة متلازمان والضلال والشقاء متلازمان .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٥ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٨٢ .

(٣) سورة القمر : الآية ٤٧ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٧ .

(٥) سورة طه : الآية ١٢٣ .

(٦) سورة طه : الآيات ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

فصل

وذكر الصراط المستقيم منفرداً معرَّفًا تعريفين : تعريفًا باللازم وتعريفًا بالاضافة وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال، فانه سبحانه يجمعها ويفردها كقوله : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[١] فوحد لفظ الصراط وسبيله وجمع السبل المخالفة له .

قال ابن مسعود : «خط لنا رسول الله ﷺ خطا وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره وقال هذه سبل، وعلى كل سبيل شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ »[٢] وهذا لأن الطريق الموصل الى الله واحد وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، الا من هذا الطريق الواحد، فانه متصل بالله، موصل إلى الله، قال الله تعالى ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾[٣] .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٣، وانظر الحديث في الدارمي : ١ / ٦٧ ، والبغوى : ٢ / ٢٠١ ، وإتحاف السادة : ٧ / ٢٧٣ .

(٣) سورة الحجر الآية ٤١ .

قال الحسن معناه : صراط الى مستقيم، وهذا يحتمل أمرين : أن يكون أراد به من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة (على) مقام (إلى) .

والثاني : أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي صراط موصل الى .

وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء، وهذا مثل قول الحسن وأبين منه، وهو من أصح ما قيل في الآية .

وقيل (على) فيه للوجوب أي على بيانه وتعريفه والدلالة عليه، والقولان نظير القولين في آية النحل ﴿ وعلى الله قصد السبل ﴾(١) والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر : أن السبيلَ القاصد وهو المستقيم المعتدل يرجع الى الله ويوصل إليه في أداة (على) سر لطيف، وهو الاشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾(٢) وقال لرسوله ﷺ ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾(٣) والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة (إلى) فتأمله فإنه سر بديع .

(١) سورة البقرة : الآية ٥ .

(٢) سورة النمل : الآية ٧٩ .

(٣) سورة الليل : الآية ١٢، ١٣ .

قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رضي الله عنه : وهما نظير قوله تعالى ﴿ ان علينا للهدى وان لنا للآخرة والأولى ﴾[١] قال فهذه ثلاثة مواضيع في القرآن في هذا المعنى .

وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة ﴿ والليل إذا يغشى ﴾[٢] إلا معنى الوجوب ، أي علينا بيان الهدى من الضلال .

ومنهم من لم يذكر في سورة النحل إلا هذا المعنى كالبغوي ، وذكر في الحجر الأقوال الثلاثة .

وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة النحل .

---

(١) سورة النحل : الآية ٩ .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ .

فصل

والصراط المستقيم: هو صراط الله وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه كما ذكرنا ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم، وهذا في موضعين من القرآن، في هود والنحل قال في هود ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾[1].

وقال في النحل ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾[2].

فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، وهي كَلٌّ على عابدها يحتاج الصنم الى أن يحمله عابده ويضعه ويقيمه ويخدمه فكيف يسوّونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد، وهو قادر متكلم غني، وهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله، فقوله صدق ورشد ونصح وهدي، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة، هذا أصح الأقوال في الآية، وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره، ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي، فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية، ثم قال : وقال الكلبي: يدلكم علي الصراط المستقيم.

---

(١) سورة هود : الآية ٥٦ .

(٢) سورة النحل : الآية ٧٦ .

قلت : ودلالتـه لنا على الصـراط هي من مـوجب كـونه سبحـانه على الصراط المستقيـم ، فإن دلالته بفعله وقوله ، وهو على الصـراط المستقيم في أفعاله وأقـواله ، فلا يناقض قول من قال إنه سبحانه على الصراط المستقيم ، قال : وقيل : هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل وهو على الصراط المستقيم .

قلت وهذا حق لا يـناقض القـول الأول ، فـالله على الصـراط المستـقيم ، ورسوله عليـه ، فانه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضـاه وموجبـه ، وعلى هذا يكون المثل مضـروبًا لإمام الكفار وهاديهم وهـو الصـنم الذي هوأبكـم لا يقـدر على هدى ولا خير .

وإمام الأبرار وهـو رسـول الله ﷺ الذي يأمـر بالعـدل وهو عـلى صـراط مستقيم ، وعلى القول الأول : يكون مضـروبا لمعبود الكفار ومعبود الأبـرار ، والقولان متـلازمان ، فبعهـضم ذكر هذا وبعضـهم ذكر هذا وكـلاهما مراد من الآية .

قـال وقيل : كـلاهما للمؤمنين والكفـار . يرويه عطيـه عن ابن عبـاس ، وقـال عـطاء : الأبكـم أبي بن خلف ومن يأمـر بالعـدل : حـمـزة وعثـمـان بن عفان ، وعثمان بن مظعـون . قلت : والآية تحتمله . ولا يناقض القولين قبله ، فان الله على صراط مستقيـم ورسوله وأتبـاع رسـوله ، وضد ذلك معبود الكفار وهاديهم ، والكافر التابع والمتبوع والمعبـد ، فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع ، وبعضـهم ذكـر الهـادي ، وبعضـهم ذكـر المستـجيب القـابل ، وتكـون الآية متناولة لذلك كله ، ولذلك نظائر كثيرة في القرآن .

وأما آية هود فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحداً هو أن الله سبحانه على صراط مستقيم، وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم، فان أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾[١] وأفعاله كلها مصالح وحكم ورحمة وعدل وخير، فالشر لا يدخل في أفعاله ولا أقواله البتة لخروج الشر عن الصراط المستقيم، فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه، وفي أقواله .

وفي دعائه عليه الصلاة والسلام « لبيك وسعديك والخير كله بيديك والشر ليس إليك »[٢] ولا يلتفت الى تفسير من فسَّره بقوله والشر لا يتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك، فإن المعنى أجل من ذلك وأكبر وأعظم قدراً، فان من أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل، يستحيل دخول الشر في أسمائه أو أوصافه أو أفعاله أو أقواله، فطابق بين هذا المعنى وبين قوله ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾[٣] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١٥ .

(٢) أخرجه البخاري، في : باب التلبية من كتاب الحج صحيح البخاري ٢ / ١٧٠ ، ومسلم في باب التلبية وصفتها ووقتها من كتاب الحج ، صحيح مسلم ٢ / ٨٤١ ، ٨٤٢ ، كما أخرجه أبو داود في باب كيفية التلبية ، من كتاب المناسك : سنن أبي داود ١ / ٤٢١ والترمذي في باب : ما جاء في التلبية ، من أبواب الحج ، عارضة الأحوذي ٤ / ٤١ ـ ٤٣ والإمام مالك في باب العمل في الإهلال من كتاب الحج ، الموطأ ١ / ١٣٣ ، ٣٣٢ .

(٣) سورة هود : الآية ٥٦ .

وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله ﴿ اني توكلت على الله ربي وربكم ﴾[١] أي هو ربي فلا يسلمني ولا يضيعني، وهو ربكم فلا يسلطكم على ولا يمنعكم مني، فان نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئا بدون مشيئته، فان ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه، فهو المتصرف فيها، ومع هذا فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها ونفوذ قضائه وقدره فيها على صراط مستقيم، لا يفعل ما يفعل من ذلك الا بحكمة وعدل ومصلحة، ولو سلطكم على فله من الحكمة في ذلك ماله الحمد عليه، لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم، لا يظلم ولا يفعل شيئا عبثا بغير حكمة، فهكذا تكون المعرفة بالله، لامعرفة القدرية المجوسية والقدرية الجبرية، نفاة الحكم والمصالح والتعليل، والله الموفق سبحانه .

(١) سورة هود : الآية ٥٦ .

فصل

ولما كان طالبُ الصراط المستقيم طالبَ أمر أكثرُ الناس ناكبون عنه مريداً لسلوك طريق مرافقه فيها غاية العزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرق، وعلى الآنس بالرفيق نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين ﴿ أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾(١)، فأضاف الصراط الى الرفقة السالكين له .

وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبنى جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه فأنهم هم الأقلون قدرا وان كانوا الأكثرين عددا كما قال بعض السلف : عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تعتبر بكثرة الهالكين . كما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق بهم وغض الطرف عمن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك .

---

(١) سورة النساء : الآية ٦٩ .

فصل

ولما كان سؤال الله الهداية الى الصراط المستقيم أجل المطالب ونيله أشراف المواهب . علم الله عباده كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان الى مطلوبهم، توصل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء، ويؤيدهما الوسيلتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد والترمذي أحدهما حديث عبدالله بن بريده عن أبيه قال : «سمع النبيﷺ رجلا يدعو ويقول : اللهم أني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقال : والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى »[١] .

قال الترمذي . حديث حسن غريب فهذا توسل الى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية وثبوت صفاته المدلول عليا باسم (الصمد) .

وهو كما قال ابن عباس : « العالم الذي كمل علمه القادر الذي كملت قدرته » .

وفي رواية عنه : « هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد » .

---

(١) أخرجه احمد في مسنده : ٥/ ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، والترمذي : ٣٤٧٥ .

وقال أبو وائل : « هو السيد الذي أنتهى سؤدده » .

وقال سعيد بن جبير : « هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأعماله » [١] وبنفي التمثيل والتشبيه عنه بقوله ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة ، والتوسل بالايمان بذلك والشهادة به هو الاسم الأعظم .

الثاني : حديث أنس « أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا اله إلا أنت ، المنان بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والاكرام ، يا حي يا قيوم فقال لقد سأل الله باسمه الأعظم » [٢] .

فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته ، وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده ، ثم جاء سؤال أهم المطالب وأنجح الرغائب وهو الهداية بعد الوسيلتين ، فالداعي به حقيق بالإجابة .

ونظير هذا دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ،

---

(١) الدر المنثور للسيوطى : ٦ / ٤١٥ تفسير سورة الاخلاص .

(٢) أخرجه احمد في مسنده : ٥ / ٢٤٩ ، ٣٦٠ .

وبك أمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت الهي لا إله إلا أنت »[1] فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه بعبوديته له ثم سأله المغفرة.

---

١) أخرجه الترمذي في سننه باب خلق الله مئة رحمة جـ١٣ / ٦١ .

وأخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾ الأنعام / ٧٣ جـ٦ / ٢٦٨٩ حديث رقم ٦٩٥٠ . ومسلم ، مسافرين : ١٩٩ .

فصل

في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

التوحيد نوعان : نوع في العلم والاعتقاد ونوع في الإرادة والقصد

ويسمى الأول : التوحيد العلمي .

والثاني : التوحيد القصدي الارادي . لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة .

وهذا الثاني أيضا نوعان : توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية فهذه ثلاثة أنواع .

فأما توحيد العلم : فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه والنقائص، وقد دل على هذا شيئان : مجمل ومفصل .

أما المجمل : فإثبات الحمد له سبحانه، وأما المفصل فذكر صفة الإلهية والربوبية والرحمة والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات .

فأما تضمن الحمد لذلك فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله مع محبته والرضا عنه والخضوع له، فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر، كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله، نقص من حمده بحسبها، ولهذا كان الحمد كله لله حمدا لا

يحصيه سواه؛ لكمال صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه، ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها، فعابها لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تهدي ولا تنفع ولا تضر، وهذه صفة اله الجهمية التي عاب بها الأصنام نسبوها إليه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا .

فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجته لأبيه : ﴿ ياأبت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا ﴾[١] ، فو كان إله بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة فكيف تنكر علي، لكن كان مع شركه أعرف بالله من الجهمية، وكذلك كفار قريش كانوا مع شركهم مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه .

قال تعالى ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[٢] فلو كان اله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا نكار عليهم، واستدلال على بطلان الالهية بذلك .

فان قيل فالله تعالى لا يكلم عباده، قيل : بلى قد كلمهم، فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب منه إليه بلا واسطة كموسى، ومنهم من كلمه الله

---

(١) سورة مريم : الآية : ٤٢ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٤٨ .

على لسان رسوله الملكي وهم الأنبياء وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله، فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه وقالوا لهم : هذا كلام الله الذي تكلم به وأمرنا بتبليغه إليكم .

ومن ههنا قال السلف : من أنكر كون الله متكلما، فقد أنكر رسالة الرسل كلهم، لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به الى عباده، فإذا انتفى كلامه، انتفت الرسالة .

وقال تعالى في سورة طه عن السامري : ﴿فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ﴾(١) ورجع القول هو التكليم .

وقال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾(٢) فجعل نفي صفات الكلام موجبا لبطلان الإلهية وهذا أمر معقول بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية، أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلها ولا مدبراً ولا ربا بل هو مذموم معيب ناقص ليس له الحمد لا في الأولى ولا في الآخرة وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد .

---

(١) سورة طه : الآية ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) سورة النحل : الآية ٧٦ .

ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه وكلامه وتكليمه توحيدا، لأن نفي ذلك انكاره والكفر به للصانع وجحد له، وإنما توحيده اثبات صفات كماله وتنزيهه عن الشبيه والنقائص، فجعل المعطلة جحد الصفات، وتعطيل الصانع عنها توحيداً وجعلوا اثباتها لله تشبيهاً وتجسيمًا وتركيبًا، فسموا الباطل باسم الحق ترغيبا فيه وزخرفا ينفقونه به وسموا الحق باسم الباطل تنفيرا عنه، والناس أكثرهم مع ظاهر السكة ليس لهم نقد النقاد ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾[1] والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت البتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه ولا مدح ولا كمال .

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه وتعبد كل شيء له، فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه وهو الغني له ما في السموات وما في الأرض ﴾[2] وحمد نفسه على عدم الشريك المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره فيكون شريكا له، فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه، لأن الموجود أكمل من المعدوم، ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنا ثبوت كمال كما

(١) سورة الكهف : الآية ١٧ .

(٢) سورة يونس : الآية ٦٨ .

حمد نفسه بكونه لا يموت، لتضمنه كمال حياته وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم لتضمن ذلك قيوميته، وحمد نفسه بانه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته، وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدا، لكمال عدله وإحسانه، وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار لكمال عظمته يرى ولا يدرك كما أنه يعلم ولا يحاط به علما وإلا فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال، لأن العدم لا يرى، فليس في كون الشيء لا يرى كمال البتة، وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراك لعظمته في نفسه وتعاليه عن إدراك المخلوق له، وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان لكمال علمه .

فكل سلب في القرآن حمد به نفسه فلمضادته الثبوت ضده ولتضمنه كمال ثبوت ضده فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي للحمد ونفي الحمد مسلتزم لثبوت ضده .

فصل

فهذا دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات .

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها وهي : الله والرب والرحمن والرحيم والملك : فمبنى على أصلين : أحدهما أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والاحسان، وبالعكس، فيقال : اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي أنك أنت المنتقم واللهم أعطني، فإنك انت الضار المانع، ونحو ذلك، ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الالحاد فيها قال سبحانه ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾(١) ولأنها لو لم تدل على معانٍ وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها لكن الله أخبر عن نفسه، بمصادرها وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى ﴿ فلله العزة جميعا ﴾(٢) فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويا ولا عزيزا، وكذلك قوله ﴿ أنزله بعلمه ﴾(٣) ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾(٤) ﴿ ولا يحيطون

(١) سورة الأعراف : الآية ١٨٠ .

(٢) سورة فاطر : الآية ١٠ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٦٦ .

(٤) سورة هود : الآية ١٤ .

بشيء من علمه ﴾(١) وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »(٢) فاثبت المصدر الذي اشتق من اسمه (البصير)، وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها « الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات »(٣) وفي الصحيح حديث الاستخارة : « اللهم اني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك »(٤) فهو قادر بقدرة، وقال تعالى لموسى : ﴿ اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾(٥) فهومتكلم بكلام وهو العظيم الذي له العظمة كما في الصحيح عنه ﷺ : « يقول الله تعالى : العظمة ازاري والكبرياء ردائي »(٦) وهو الحكيم الذي له الحكم ﴿ فالحكم لله العلى الكبير ﴾(٧) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه فى الإيمان : ١ / ١٦٢ ، و أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المقدمة، باب فيما انكرت الجهمية : ١ / ٧١ ، حديث رقم ١٩٦ . وأخرجه أحمد في مسنده ٤ / ٣٩٥، ٤٠١، ٤٠٥ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى : ﴿ وكان الله سميعا بصيرا ﴾ النساء ١٣٤جـ٦ / حديث رقم ٢٦٨٩ .وأخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب المقدمة، باب فيما انكرت الجهمية ١ / ٦٧ حديث رقم ١٨٨ . وأخرجه أحمد في مسنده ٦ / ٤٦ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التوحيد ، باب : قول الله تعالى : (قل هو القادر » الأنعام / ٦٥ جـ٦ / ٦٩٠ ، ٦٩١ حديث رقم ٦٩٥٥ ، وأخرجه أحمد في مسنده : ٣ / ٣٤٤.

(٥) سورة الأعراف : الآية ١٤٤ .

(٦) رواه أبو داود : ٤ / ٥٩ رقم الحديث ٤٠٩٠ ، وأحمد فى المسند : ٢ / ٣٧١، ٤١٤، ٤٢٧ .

(٧) سورة غافر : الآية : ١٢

وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله أو سمعه أو بصره أو قوته أو عزته أو عظمته انعقدت يمينه وكانت مكفرة، لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه، وأيضا لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها فلا يقال : يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها، فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها .

وأيضا فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها، وهذا مكابرة صريحة وبهت بين، فإن من جعل معنى اسم (القدير) هو معنى اسم (السميع، البصير) ومعنى اسم (التواب)هو معنى اسم (المنتقم) ومعنى اسم (المعطي) وهو معنى اسم (المانع) فقد كابر العقل واللغة والفطرة . فنفى معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها والإلحاد فيها أنواع هذا أحدها .

الثاني : تسمية الأوثان بها كما يسمونها آلهة .

وقال ابن عباس ومجاهد : « عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه فسموا بها أوثانهم فزداوا ونقصوا فاشتقوا اللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان »[١] .

(١) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية : ٦ / ١٥٧ ، وتفسير ابن كثير : ٢ / ٢٦٩ .

وروى عن ابن عباس ﴿ يلحدون في أسمائه ﴾[1] (يكذبون عليه) وهذا تفسير بالمعنى وحقيقة الإلحاد فيها : العدول بها عن الصواب فيها وإدخال ماليس من معانيها فيها واخراج حقائق معانيها عنها . هذا حقيقة الالحاد . ومن فعل ذلك فقد كذب على الله، ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها وخرج بها عن حقا ئقها أو بعضها فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد .

فالإلحاد : إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب واخراجها عن الحق بالتلاويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات كإلحاد أهل الاتحاد . فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم : وهو ليس بكل اسم ممدوح عقلا وشرعا وعرفا وبكل اسم مذموم عقلا وشرعا وعرفا .

تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٨٠ .

فصل

الأصل الثاني : أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى، كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فانه يدل دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك عَلى الذات المجردة عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللازم .

فإن اسم (السميع) يدل على ذات الربِ وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدل على اسم الحي صفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن هنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فان من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وان السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة، أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته، فان اسم (العظيم) له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها وكذلك اسم (العلى) واسم (الحكيم) وسائر أسمائه .

فإن من لوازم اسم (العلي) العلو المطلق بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه (العلى) .

وكذلك اسم (الحكيم) من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله ووضعه الأشياء في مواضعها وإيقاعها على أحسن الوجوه فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه، وكذلك سائر أسمائه الحسنى .

فصل

إذا تقرر هذان الأصلان : فاسم (الله) دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث ، فإنه دال على الهيئة المتضمنة لثبوت صفات الإلهية مع نفي أضدادها عنه ، وصفات الإلهية هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال ، وعن العيوب والنقائص ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم كقوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾[1] ويقال : الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم من أسماء الله ، ولا يقال الله من أسماء الرحمن ، ولا من أسماء العزيز ، ونحو ذلك فعلم أن اسمه (الله) مسلتزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالاجمال ، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم (الله) .

واسم (الله) دال على كونه مألوها معبودًا تألهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا وفزعا إليه في الحوائج والنوائب ، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد .

وإلهيته وربوبيته ورحمانية وملكه مسلتزم لجميع صفات كماله إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله .

فصفات الجلال والجمال أخص باسم (الله) .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٨٠ .

وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة .

وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة أخص باسم (الرب) .

وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنعة والرأفة واللطف أخص باسم (الرحمن) .

وكرر ايذانا بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته .

فالرحمن : الذي رحمته صفته .

والرحيم : الراحم لعباده ولهذا يقول تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[١] ﴿ أنه بهم رؤوف رحيم ﴾[٢] .

ولم يجئ رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم (الرحمن) الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه الموصف به .

ألا ترى أنهم يقولون : غضبان للمتلىء غضبًا وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن مليء بذلك .

فبناء فعلان للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواؤه على العرش بهذا الاسم كثيرا كقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[٣] ﴿ ثم

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٣ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١٧ .

(٣) سورة طه : الآية ٥ .

استوى على العرش الرحمن ﴾ (١) فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم كما قال تعالى: ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾(٢) فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضى ـ الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده موضوع على العرش: ان رحمتي تغلب غضبي»(٣) وفي لفظ: «فهو وضع عنده على العرش» فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة ووضعه عنده على العرش وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وقوله: ﴿ ثم استوى على العرش الرحمن فأسأل به خبيرا ﴾(٤) ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى ان لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم وصفات العدل والقبض والبسط والخفض والرفع والعطاء والمنع والاعزاز والإذلال والقهر والحكم ونحوها: أخص باسم (الملك).

وخصه بيوم الدين وهو الجزاء بالعدل لتفرده بالحكم فيه وحده ولأنه اليوم الحق وما قبل كساعة ولأنه الغاية وأيام الدنيا مراحل إليه.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٥٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) البخارى (٩٧) كتاب التوحيد (١٥) قول الله تعالى: ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾: ٨ / ١٧١، وأحمد في المسند: ٢ / ٥٤٢.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٥٩.

فصل

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة وهي (الله ، والرب ، والرحمن) كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب ، وكيف جمعت الخلق وفرقتهم فلها الجمع والفرق .

فاسم (الرب) له الجمع الجامع لجميع المخلوقات فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه ، لا يخرج شيء عن ربوبيته ، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره فاجتمعوا بصفة الربوبية وافترقوا بصفة الإلهية ، فألهة وحده السعداء وأقروا له طوعا بأنه الله الذي لا إله إلا هو الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والأخبات والخشية والتذلل والخضوع الا له .

وههنا افترق الناس وصاروا فريقين : فريقا مشركين في السعير وفريقا موحدين في الجنة . فالالهية هي التي فرقتهم ، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم .

فالدين والشرع والأمر والنهي مظهره وقيامه من صفة الإلهية ، والخلق والايجاد والتدبير والفعل من صفة الربوية .

والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك ، وهو ملك يوم الدين ، فأمرهم بالهيته ، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته ، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله .

وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى .

وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عباده فالتأليه منهم له والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية وبينه وبينهم سبب الرحمة وأقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ مطابق لقوله ﴿ رب العالمين الرحمن الرحيم ﴾ فإن شمول الربربية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها فوسع كل شيء برحمته وربوبيته مع أن في كونه ربا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه وكونه فوق كل شيء كما يأتي بيانه إن شاء الله .

فصل

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في الهيته محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود رب مجمود، ورحمان محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أن الله غني حميد ﴾[1] ﴿ إن الله عليم حكيم ﴾[2] ﴿ والله قدير والله غفور رحيم ﴾[3] فالغنى صفة كمال، والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضا، وعلمه كمال وحكمته كمال واقتران العلم بالحكمة كمال ايضا .

وقدرته كمال ومغفرته كمال واقتران القدرة بالمغفرة كمال .

وكذلك العفو بعد القدرة ﴿ فإن الله كان عفوا قديرا ﴾[4] واقتران العلم بالحلم﴿ والله عليم حليم ﴾[5] وحملة العرش أربعة : اثنان يقولان (سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك) واثنان يقولان (سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٢٨ .

(٣) سورة الممتحنة : الآية ٦٠ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٤٩ .

(٥) سورة النساء : الآية ١٢ .

فما كل من قدر عفا ، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة ، ولا كل من علم يكون حليما ، ولا كل حليم عالم ، فما قرن شيء إلى شيء أزينُ من حلم إلى علم .

ومن عفو إلى قدرة ، ومن ملك إلى حمد ، ومن عزة إلى رحمة ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[1] .

ومن ههنا كان قول المسيح عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ﴾[2] احسن من أن يقول وان تغفر لهم فانك أنت الغفور الرحيم . أي ان غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة وهي كمال القدرة وعن حكمة وهي كمال ا لعلم ، فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني لا يكون قادراً حكيماً عليماً .

فأنت لا تغفر الا عن قدرة تامة وعلم تام وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها فهذا أحسن من ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها ، وقد فاتت فإنه لو قال وان تغفر لهم فانك أنت الغفور الرحيم كان في هذا من الاستعطاف والتعويض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها مانزه عنه منصب المسيح عليه السلام لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال ، وموقف انتقام ممن جعل لله ولدا أو اتخذ إلها من دونه فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة وهذا

---

(١) سورة الشعراء : الآيتان ٩ ، و ٦٨ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١١٨ .

بخلاف قول الخليل عليه السلام ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ﴾(١) ولم يقل فانك عزيز حكيم، لأن المقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي أن تغفر له وترحمه بأن توفقه للرجوع من الشرك إلى التوحيد ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث: «اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون »(٢) وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعإلى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به وان كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره والله الموفق للصواب .

---

(١) سورة ابراهيم : الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين باب : إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ ولم يصرح ، نحو قوله : السام عليكم جـ ٦ / ٢٥٣٨ حديث رقم ٦٥٣٠ .

فصل

(فى مراتب الهداية الخاصة والعامة وهى عشر مراتب)[١]

المرتبة الأولى : مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه قال الله تعالى﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾[٢] فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه، وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية، ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر (كلم) وهو (التكليم) رفعا لما توهمه المعطلة والجهمية وغيرهم من أنه إلهام أو إشارة أوتعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز .

قال الفراء : العرب تسمى ما يوصل إلى الانسان كلاما بأي طريق وصل، ولكن لا تحققه بالمصدر، فاذا حققته بالمصدر، لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالارادة يقال فلان أرادة يريدون حقيقة الارادة، ويقال : أراد الجدار ولا يقال : إرادة . لأنه مجاز غير حقيقة، هذا كلامه.

---

(١) انظر لهذه المراتب العشرة : ابن القيم فى مدارج السالكين : ١ / ٣٧ - ٥٠ باختصار .

(٢) سورة النساء : الآية ١٦٤ .

وقال تعالى ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر اليك ﴾[١] وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون، وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر لا في الأول، وفيه اعطى الألواح، وكان عن مواعدة من الله له، والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة، وفيه قال الله له ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾[٢] أي بتكالمي لك بإجماع السلف وقد أخبر سبحانه في كتابه أنه ناداه وناجاه، فالنداء من بعد والنجاء من قرب تقول العرب اذا كبرت الحقة فهو نداء أو نجاء وقال له ابوه ادم في محاجته (أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده[٣] وكذلك يقول له أهل الموقف اذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه، وكذلك في حديث الأسراء[٤] في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة على اختلاف الرواية قال (ذلك بتفضيله بكلام الله) ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى، ولا كان يسمى (كليم الرحمن) وقال تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾[٥] ففرق بين تكليم الوحي والتكليم بارسال الرسول والتكليم من وراء حجاب .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤٤ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٤٣ .

(٣) مسند أحمد : ٢ / ٢٤٨ ، والبخارى (٨٢) قدر (١١) باب تحاج آدم وموسي عند الله عز وجل : ٧ / ٢١٤ .

(٤) البخارى (٨) صلاة (١) باب كيف فرضت الصلاة في الاسراء : ١ / ٩١ - ٩٢ .

(٥) سورة الشورى الآية ٥١ .

فصل

المرتبة الثانية : مرتبة الوحي المختص بالأنبياء قال الله تعالى ﴿ إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾(١) .

وقال : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب... ﴾ الآية (٢) ، فجعل الوحي في هذه الآية قسما من أقسام التكليم، وجعله في آية النساء قسيما للتكليم، وذلك باعتبارين فانه قسيم التكليم الخاص الذي بلا واسطة وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة .

والوحي في اللغة هو الاعلام السريع الخفي، ويقال في فعله وحى وأوحى .

قال رؤبة : « وحي لها القرار فاستقرت » وهو أقسام كما سنذكره .

(١) سورة النساء : الآية ١٦٣ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٥١ .

فصل

المرتبة الثالثة : ارسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري فيوحى اليه عن الله ماأمره أن يوصله إليه فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء لاتكون لغيرهم .

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلا يراه عيانا ويخاطبه وقد يراه على صورته التي خلق عليها وقد يدخل فيه الملك ويوحي إليه ما يوحيه، ثم يفصم عنه أي يقلع والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ (١) .

---

(١) انظر : دلائل النبوة للبيهقى : ٧/ ٥٢ ، ومسند الحميدى : ٢٥٦ ، والتمهيد لابن عبدالبر ١/ ٢٨٤ .

فصل

المرتبة الرابعة مرتبة التحديث وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه كما قال النبي ﷺ « أنه كان في الأمم قبلكم محدثون فان يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب »[(١)] .

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله يقول : جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا وعلق وجودهم في هذه الإمة بأن الشرطية مع أنها أفضل الأمم قبلنا اليهم واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم ولا صاحب كشف ولا منام فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا نقصها .

والمحدث هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء فيكون كما يحدث به .

قال شيخنا والصديق أكمل من المحدث لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول فاستغنى به عما منه .

قال وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول فان وافقه قبله والارده فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ٦ / ٥٥ ، وانظر : فتح الباري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٤٢ ، حديث رقم ٣٦٨٦ .

قال وأماما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات حدثني قلبي عن ربي فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عن من ؟ عن شيطانه أو عن ربه فإذا قال حدثني قلبي عن ربي كان مسندا الحديث إلي من لم يعلم أنه حدثه به وذلك كذب .

قال ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك ولا تفوه به يوما من الدهر وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك بل كتب كاتبه يوما « هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال : لا ، امحه واكتب : هذا ما رأى عمر بن الخطاب فإن كان صوابا فمن الله وان كان خطأ فمن عمر ، والله ورسوله منه برئ »[1] ، وقال في الكلالة : « أقول فيها برأيي ، فإن يكن صوابًا فمن الله وان يكن خطأ فمني ومن الشيطان » فهذا قول المحدث بشهادة الرسول وأنت ترى الاتحادي والحلولي والاباحي الشطاح والسماعي مجاهر بالقحة والفرية . يقول حدثني قلبي عن ربي فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئا واحد .

---

(١) أعلام الموقعين لابن الجوزية : ١ / ٥٤ .

فصل

المرتبة الخامسة : مرتبة الإفهام . قال الله تعالى ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾(١) فذكر هذين النبيين الكريمين ، فأثنى عليهما بالعلم والحكم ، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة .

وقال علي بن أبي طالب وقد سئل « هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس ؟ فقال : لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة الا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه وما في هذه الصحيفة وكان فيها العقل وهو الديات وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر »(٢) .

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما : « والفهم فيما أدليإاليك »(٣) فالفهم نعمة من الله على عبده ونور يقذفه الله في قلبه يعرف به ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه ، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه .

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تفاوتت مراتب العلماء حتى عد ألف بواحد .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) البخارى (٨٧) الديات (٢٤) باب العاقلة : ٨ / ٤٥ و (٣١) باب لايقتل المسلم بكافر : ٨ / ٤٧ .

(٣) إعلام الموقعين : ١ / ٨٥ - ٨٦ .

فانظر إلى فهم ابن عباس وقد سأله عمر : ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾[١] وما خص به ابن عباس من فهمه منها أنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه واعلامه بحضور أجله وموافقة عمر له على ذلك وخفائه عن غيرهما من الصحابة[٢] .

وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا ، وأين تجد في هذه السورة الاعلام بأجله لولا الفهم الخاص ، ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس فيحتاج مع النص إلى غيره ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه وأما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها .

---

(١) سورة الفتح : الآية ١ .

(٢) البخارى (٦٥) كتاب تفسير القرآن (١١٠) تفسير سورة ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ : ٦/٩٣ - ٩٤ .

فصل

المرتبة السادسة : مرتبة البيان العام وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودا للقلب كشهود العين للمرئيات، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحد ولا يضلهاإلا بعد وصوله إليها قال الله تعالى ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ﴾[١] .

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم ولم يعملوا به فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا لبيان .

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر وزالت عنك شكوك كثيرة وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله ما يضله من عباده والقرآن يصرح بهذا في غير موضع كقوله﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾[٢] ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾[٣] فالأول كفر عناد والثاني كفر طبع .

وقوله : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾[٤] فعاقبهم على ترك الايمان به حين

---

(١) سورة التوبة : الآية ١١٥ .

(٢) سورة الصف : الآية ٥ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٥٥ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١١٠ .

تيقنوه وتحققوه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه موضع عظيم .

وقال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[١] فهذا هدى بعد البيان والدلالة ، وهو شرط لا موجب ، فإنه ان لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء ، وهو هدى التوفيق والإلهام .

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوة ، وبيان بالآيات المشهودة المرئية ، وكلهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله وصدق ما أخبرت به عنه ، ولهذا يدعو عبادة بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة عليهم ويحضهم على التفكر في هذه .

وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل وجعل اليهم وإلى العلماء بعدهم وبعد ذلك يضل الله من يشاء قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾[٢] فالرسل تبين والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته .

---

(١) سورة فصلت الآية ١٧ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤ .

فصل

المرتبة السابعة : البيان الخاص، وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء وقطع أسباب الخذلان، وموادها عن القلب، فلا تتخلف عنه الهداية البتة .

قال تعالى في هذه المرتبة ﴿ إن تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل ﴾(١) .

وقال ﴿ انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾(٢) فالبيان الأول شرط وهذا موجب .

---

(١) سورة النحل : الآية ٣٧ .

(٢) سورة القصص : الآية ٥٦ .

فصل

المرتبة الثامنة : مرتبه الأسماع .

قال الله تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[١] .

وقال تعالى ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير ﴾[٢] .

وهذا الاسماع أخص من اسماع الحجة والتبليغ، فان ذلك حاصل لهم وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذلك إسماع الآذان وهذا إسماع القلوب .

فان الكلام له لفظ ومعنى وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما .

فسماع لفظه حظ الأذن وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾[٣] .

وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه أو تمكنه منها، وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه، فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٢٣ .

(٢) سورة فاطر : الآيات : ١٩ - ٢٣ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٢، ٣ .

وأعراضه بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه ﴿ ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ﴾[١] .

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام : أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم[٢] فهي[٣] أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر وهي انها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول فهو اذن ثلاث مراتب : سماع القلب وسماع القبول وسماع الإجابة .

---

(١) سورة محمد : الآية ١٦ .

(٢) لأنها تكون بالأذن وبالقلب .

(٣) أي مرتبةالسماع التي تقدم الكلام عنها ، وهي سماع الأذن . أخص لتعلقها بالأذن .

فصل

المرتبة التاسعة : مرتبة الإلهام .

قال تعالى ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾[١] وقال النبي ﷺ لحصين بن عبيد الخزاعي لما أسلم : « قل : اللهم الهمني رشدي وقني شر نفسي »[٢] .

والتحديث أخص من الإلهام : فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له الإيمان فأما التحديث فالنبي ﷺ قال فيه : « إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر »[٣] يعني من المحدثين .

فالتحديث الهام خاص وهو الوحي إلى غير الأنبياء اما من المكلفين كقوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾[٤] وقوله : ﴿ وإذا أوحيت إلى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي ﴾[٥] واما من غير المكلفين

---

(١) سورة الشمس : الآية ٧، ٨ .

(٢) الترمذي دعوات (٧٠) : ٥ / ٣٤٨٣ وقال : هذا حديث غريب .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده : ٦ / ٥٥ .

انظر فتح الباري ، ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٤٢ حديث رقم ٣٦٨٩ .

(٤) سورة القصص : الآية ٧ .

(٥) سورة المائدة : الآية ١١١ .

كقوله تعالى: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ [١] فهذا كله وحي إلهام .

والتحقيق ان كل واحد من الفراسة والإلهام، ينقسم إلى عام وخاص، وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر وعام كل واحد قد يقع كثيرا وخاصه قد يقع نادرا ولكن الفرق الصحيح : أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل وأما الإلهام فموهبة مجردة لا تنال بكسب البتة .

(١) سورة النحل : الآية ٦٨ .

فصل

المرتبة العاشرة : من مراتب الهداية الرؤيا الصادقة، وهي من أجزاء النبوة، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة » [١] .

وقد قيل في سبب هذا التخصيص المذكور أن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة وذلك نصف سنة، ثم انتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاثة وعشرين سنة، ومن حين بعث إلى أن توفى صلوات الله وسلامه عليه فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك جزء من ستة وأربعين جزءا، وهذا حسن لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة أنها جزء من سبعين جزءا[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٩١) ، كتاب التعبير (٢) ، باب رؤيا الصالحين جـ ٨ / ٦٨، ومسلم : ٤ / ١٧٧٣ حديث رقم (٢٢٦٣) .

(٢) صحيح مسلم : ٤ / ١٧٧٥ حديث رقم (٢٢٦٥) هذا آخر النقل عن مدارج السالكين باختصار من : ١ / ٥٠٢٧ .

فصل[1]

في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين . شفاء القلوب . وشفاء الأبدان .

فأما اشتمالها على شفاء القلوب فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال ، فان مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين : فساد العلم وفساد القصد ويترتب عليها دآن قاتلان وهما الضلال والغضب .

فالضلال نتيجة فساد العلم ، والغضب ينتجه فساد القصد ، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها ، فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال ، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة لشدة ضرورته إلى الهداية المطلوبة ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه .

والتحقيق : ﴿ إياك نعبد واياك نستعين ﴾ علمًا ومعرفة وعملا وحالا : يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد .

فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية ، وتوسل اليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسد .

والمقصود أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم ، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها واضمحلت وفنيت حصلوا على أعظم الخسران

---

(١) هذا الفصل من مدارج السالكين : ١ / ٥٢ - ٥٥ .

والحسرات وهم أعظم الناس ندامة وتحسرا إذا حق الحق وبطل الباطل وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة وهذا يظهر كثيرا في الدنيا .

ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهوره وتحقيقه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، اذا حققت الحقائق، وفاز المحقون، وخسر المبطلون، وعلموا انهم كانوا كاذبين وكانوا مخدوعين مغرورين، فياله من علم لا ينفع عالمه ويقين لا ينجي مستيقنه .

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الاسمي ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه بل توسل اليه بالوسيلة ظنها موصلة اليه وهي من أعظم القواطع عنه . فحاله ايضا كحال هذا وكلاهما فاسد القصد ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾.

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء عبودية الله لا غيره بأمره وشرعه، لا بالهوى، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم، بل بالإستعانة على عبوديته به لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره فهذه هي أجزاء ﴿ إياك نعبد واياك نستعين ﴾ فإذا ركبها الطبيب اللطيف العالم بالمرض واستعملها المريض حصل بها الشفاء التام وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها أو اثنين أو أكثر، ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان ان لم يتداركهما انتهيا به إلى التلف ولا بد وهما الرياء والكبر فدواء الرياء ﴿ اياك نعبد ﴾ ودواء الكبر ﴿ اياك نعبد ﴾ ، وكثيراً ماكنت اسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول ﴿ إياك نعبد ﴾ تدفع

الرياء، ﴿ اياك نستعين ﴾ تدفع الكبرياء، فإن عوفي من مرض الرياء بـ ﴿إياك نعبد ﴾، ومن مرض الكبرياء والعجب ﴿ اياك نستعين ﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم غير المغضوب عليهم وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، والضالين وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه .

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفائين أن يستشفى بها من كل مرض ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفائين كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله وكلامه وفهمت عنه فهما خاصا اختصها به من معاني هذه السورة .

وسنبين ان شاء الله تعالى تضمنها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان، وأحسن الطرق، ثم ذكر(١) فصلين في الرقية بالفاتحة وتأثيرها مستشهداً بحديث أبي سعيد، وببعض تحليلات نفسية وبتجاربه، ثم قال .

---

(١) أي ذكر ابن القيم الشفاء الثاني وهو شفاء الأبدان مما جاءت به السنة، ومن قواعد الطب ومادلت عليه التجربة، انظر : ١/ ٥٥ - ٥٨ .

فصل[١]

في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة .

وهذا يعلم بطريقين مجمل ومفصل .

أما المجمل : فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق وآثاره وتقديمه على غيره ومحبته والإنقياد له، والدعوة إليه وجهاد أعدائه بحسب الامكان .

والحق هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وما جاء به علما وعملا في باب صفات الرب سبحانه وأسمائه وتوحيده وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وفي حقائق الايمان التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى، وكل ذلك مسلم إلى رسول الله ﷺ دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم، فكل علم أو عمل أو حقيقة أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته وعليه السكة المحمدية، بحيث يكون من ضرب المدينة فهو من الصراط المستقيم ومالم يكن كذلك، فهو من صراط أهل الغضب والضلال، فما ثم خروج عن هذه الطرق الثلاث :

طريق الرسول ﷺ وما جاء به .

وطريق أهل الغضب وهي طريق من عرف الحق وعانده .

---

(١) هذا الفصل منقول عن مدارج السالكين : ١ / ٥٨ - ١٢٢ باختصار جيد .

وطريق أهل الضلال وهي طريق من أضله الله عنه .

ولهذا قال عبدالله بن عباس وجابر بن عبدالله رضى الله عنهم : «الصراط المستقيم : هو ا لإسلام» .

وقال عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما : «هو القرآن » .

وفيه حديث مرفوع في الترمذي[١] وغيره .

وقال سهل بن عبد الله : « طريق السنة والجماعة » .

وقال بكر بن عبد الله المزني : «(طريق رسول الله ﷺ[٢] » .

ولا ريب أنه ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علمًا وعملاً هو معرفة الحق وتقديمه وإيثاره على غيره، فهو الصراط المستقيم وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له فهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل وهو من صراط الأمتين : الأمة المغضوب عليها، وأمة أهل الضلال .

---

(١) الترمذى (٤٦) تفسير القرآن (١٤) ماجاء في فضل القرآن حديث رقم (٢٩٠٦) ، ومسند أحمد : ٤ / ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) انظر هذه الأقوال وغيرها كثيراً : الدر المنثور للسيوطي : ١ / ١٤ - ١٥ .

فصل

وأما المفصل : فمعرفة المذاهب الباطلة واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها فنقول :

الناس قسمان : مقر بالحق تعالى وجاحد له، فتضمنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى، والرد على من جحده باثبات ربوبيته تعالى للعالمين.

وتأمل حال العالم كله علويه وسفليه بجميع أجزائه تجده شاهدا باثبات صانعه وفاطره ومليكه فانكار صانعه وجحده في العقول والفطر بمنزلة انكار العلم وجحده لا فرق بينهما، بل دلالة الخالق على المخلوق، والفاعل على الفعل، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزاكية المشرفة العلوية والفطر الصحيحة أظهر من العكس، فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه، إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه ولا ريب أنهما طريقان صحيحان كل منهما حق والقرآن مشتمل عليهما .

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير وأما الاستدلال بالصانع فله شأن وهو الذي اشارت اليه الرسل بقولهم لأممهم ﴿ أفي الله شك ﴾[١] أي أيشك في الله حتى يطلب اقامة الدليل على وجوده، وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى ؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾[٢] .

---

(١) سورة إبراهيم :من الآية ١٠ .

(٢) سورة إبراهيم :من الآية ١٠ .

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية قدس الله روحه يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء ؟ وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلي الدليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما واذا بطل قول هؤلاء بطل قول أهل الالحاد .

والفاتحة من أولها إلى آخرها تبين بطلان قول الملاحدة وضلالهم .

والمقرون بالرب سبحانه وتعالى : أنه صانع العالم نوعان : نوع ينفي مباينته لخلقه ويقولون : لا مباين ولا محايث ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوقه ولا تحته ، ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه ولا فيه ولا بائن عنه . فتضمنت الفاتحة للرد على هؤلاء من وجهين :

أحدهما : إثبات ربوبيته تعالى للعالم ، فإن الربوبية المحضة تقتضي مباينة الرب للعالم بالذات ، كما باينهم بالربوبية والصفات والأفعال ، فمن لم يثبت ربا مباينا للعالم فما أثبت ربا فأنه إذا نفى المباينة لزمه أحد أمرين ، لزوما لا انفكاك له عنه البتة : إما أن يكون هو نفس هذا العالم ، وحينئذ يصح قوله : فإن العالم لا يباين ذاته ونفسه ، ومن ههنا دخل أهل الوحدة ، وكانوا معطلة أولا واتحادية ثانيا . وأما أن يقول : مآثم رب يكون

مباينا ولا محايثا ولا داخلا ولا خارجا كما قالته الدهرية المعطلة للصانع . وأما هذا القول الثالث المشتمل على جمع النقيضين : اثبات رب مغاير للعالم مع نفي مباينته للعالم واثبات خالق قائم بنفسه لا في العالم ولا خارج العالم، ولا فوق العالم ولا تحته، ولا خلفه ولا أمامه، ولا يمنته ولا يسرته : فقول له خبيء، والعقول لا تتصوره حتى تصدق به فاذا استحال في العقل تصوره . فاستحالة التصديق به أظهر وأظهر . وهو منطبق على العدم المحض، والنفي الصرف، وصدقه عليه أظهر عند العقول والفطر من صدقه على رب العالمين، فضع هذا النفي وهذه الألفاظ الدالة عليه على العدم المستحيل ثم ضعها على الذات العلية القائمة بنفسها، التي لم تحل في العالم ولا حل العالم فيها ثم أنظر أي المعلومين أولى به ؟ واستيقظ لنفسك وقم لله قومة مفكر في نفسه في الخلوة في هذا الأمر، متجرد عن المقالات وأربابها وعن الهوى والحمية والعصبية صادقا في طلب الهداية من الله فالله أكرم من أن يخيب عبدا هذا شأنه . وهذه المسألة لا تحتاج إلى أكثر من إثبات رب قائم بنفسه مباين لخلقه بل هذا نفس ترجمتها .

فصل

ثم المثبتون للخالق تعالى نوعان : أهل توحيد وأهل اشراك، وأهل الإشراك نوعان .

أحدهما : أهل الإشراك به في ربوبيته وإلهيته، كالمجوس ومن ضاهاهم من القدرية فأنهم يثبتون مع الله خالقا آخر، وإن لم يقولوا : إنه مكافىء له، والقدرية المجوسية تثبت مع الله خالقين للأفعال، ليست أفعالهم مقدورة لله ولا مخلوقة لهم، وهي صادرة بغير مشيئته ولا قدرة له عليها، ولا هو الذي جعل أربابها فاعلين لها، بل هم الذين جعلوا أنفسهم شائين مريدين فاعلين . فربوبية العالم الكاملة المطلقة الشاملة تبطل أقوال هؤلاء كلهم لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال .

وحقيقة قول القدرية المجوسية : أنه تعالى ليس ربا لأفعال الحيوان ولا تناولتها ربوبيته وكيف تتناول مالا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه؟ مع أن في عموم حمده ما يقتضي حمده على طاعات خلقه، إذ هو المعين عليها والموفق لها وهو الذي شاءها منهم، كما قال في غير موضع من كتابه﴿ وما تشاؤن إلا أن يشاء الله ﴾[1] فهو محمود على أن شاءها لهم، وجعلهم فاعليها بقدرته ومشيئته فهو المحمود عليها في الحقيقة. وعندهم : أنهم هم المحمودون عليها، ولهم الحمد على فعلها، وليس لله حمد على نفس فاعليتها عندهم، ولا على ثوابه وجزائه عليها .

---

(١) سورة التكوير : الآية ٢٩ .

أما الأول : فلأن فاعليتها بهم لا به .

وأما الثاني : فلأن الجزاء مستحق عليه استحقاق الأجرة على المستأجر، فهو محض حقهم، الذي عاوضوه عليه .

وفي قوله : ﴿ واياك نستعين ﴾ رد ظاهر عليهم . إذ استعانتهم به انما تكون عن شيء هو بيده وتحت قدرته ومشيئته فكيف يستعين من بيده الفعل وهو موجده ان شاء أوجده وان شاء لم يوجده، بمن ليس ذلك الفعل بيده ولا هو داخل تحت قدرته ولا مشيئته ؟

وفي قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أيضا رد عليهم فان الهداية المطلقة التامة هي المستلزمة لحصول الاهتداء، ولولا أنها بيده تعالى دونهم لما سألوه اياها، وهي المتضمنة للإرشاد والبيان والتوفيق والاقدار، وجعلهم مهتدين، وليس مطلوبهم مجرد البيان والدلالة كما ظننته القدرية . لأن هذا القدر وحده لا يوجب الهدى ولا ينجي من الردي، وهو حاصل لغيرهم من الكفار الذين استحبوا العمى على الهدى واشتروا الضلالة بالهدى .

فصل

النوع الثاني : أهل الاشراك به في إلهيته ، وهم المقرون بأنه وحده رب كل شيء ، ومليكه وخالقه وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين ، ورب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وهم مع هذا يعبدون غيره ويعدلون به سواه في المحبة والطاعة والتعظيم ، وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادا ، فهؤلاء لم يوفوا﴿ إياك نعبد ﴾ حقه ، وان كان لهم نصيب من (نعبدك) . لكن ليس لهم نصيب من ﴿ اياك نعبد ﴾ المتضمن معنى : لا نعبد الا اياك حبا وخوفا ورجاء وطاعاة وتعظيما .

﴿ إياك نعبد ﴾ تحقيق لهذا التوحيد ، وابطال للشرك في الآلهية كما أن ﴿ إياك نستعين ﴾ تحقيق لتوحيد الربوبية وابطال للشرك به فيها وكذلك قوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فإنهم أهل التوحيد وهم أهل تحقيق ﴿ إياك نعبد واياك نستعين ﴾ وأهل الاشراك : هم أهل الغضب والضلال .

فصل

في تضمنها الرد على الجهمية معطلة الصفات وذلك من وجوه :

أحدهما : من قوله ﴿ الحمد لله ﴾ فإن اثبات الحمد الكامل له يقضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله، ونعوت جلاله، إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الاطلاق، وغايته : أنه محمود من وجه دون وجه .

ولا يكون محمودا بكل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد : الامن استولى على صفات الكمال جميعها فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها .

وكذلك في اثبات صفة الرحمة له : ما يتضمن إثبات الصفات التي تستلزمها من الحياة والارادة والقدرة والسمع والبصر وغيرها .

كذلك صفة الربوبية تستلزم جميع صفات الفعل .

وصفة الإلهية تستلزم جميع أوصاف الكمال : ذاتا وأفعالا كما تقدم بيانه، فكونه محمودا إلها ربا رحمانا رحيما ملكا معبودا، مستعانا، هاديا منعما، يرضى ويغضب، مع نفي قيام الصفات به : جمع بين النقيضين وهو من أمحل المحال .

وهذه الطريقة تتضمن اثبات الصفات الخبرية من وجهين :

أحدهما : أنها من لوازم كماله المطلق فان استواءه على عرشه من لوازم علوه ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا في نصف الليل الثاني من لوازم رحمته وربوبيته ، وهكذا سائر الصفات الخبرية .

الوجه الثاني : أن السمع ورد بها ثناء على الله ومدحا له، وتعرفا منه إلى عباده بها . فجحدها وتحريفها عما دلت عليه، وأريد بها : مناقض لما جاءت له، فلك أن تستدل بطريق السمع على أنها كمال، وأن تستدل بالعقل كما تقدم .

فصل

في تضمنها الرد على الجبرية وذلك من وجوه:

أحدها : من إثبات عموم حمده سبحانه . فإنه يقتضي ألا يعاقب عبيده على مالا قدرة لهم عليه ولا هو من فعلهم، بل هو بمنزلة ألوانهم، وطولهم وقصرهم، بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم . فهو الفاعل لقبائحهم في الحقيقة، وهو المعاقب لهم عليها . فحمده عليها يأبى ذلك أشد الإباء وينفيه أعظم النفي فتعالى من له الحمد كله عن ذلك علوًا كبيرًا بل إنمايعاقبهم على نفس أفعالهم التي فعلوها حقيقة .

فهي أفعالهم لا أفعاله . وإنما أفعاله العدل والاحسان والخيرات .

الوجه الثاني : إثبات رحمته ورحمانيته تنفيى ذلك . إذ لا يمكن اجتماع هذين الأمرين قط : أن يكون رحمانا رحيما، ويعاقب العبد على مالا قدرة له عليه، ولا هو من فعله بل يكلفه مالا يطيقه، ولا له عليه قدرة البتة، ثم يعاقبه عليه، وهل هذا إلا ضد الرحمة . ونقض لها وابطال؟ وهل يصح في معقول أحد ا جتماع ذلك والرحمة التامة الكاملة في ذات واحدة؟

الوجه الثالث : اثبات العبادة والاستعانة لهم ونسبتها اليهم بقولهم : (نعبد ونستعين) وهي نسبة حقيقية لا مجازية، والله لا يصح وصفه بالعبادة والاستعانة التي هي من أفعال عبيده، بل العبد حقيقة : هو العابد المستعين . والله المعبود المستعان به .

فصل

في بيان تضمنها للرد على القائلين بالموجب بالذات دون الاختيار والمشيئة وبيان أنه سبحانه فاعل مختار . وذلك من وجوه :

أحدهما : من اثبات حمده إذ كيف يحمد على ما ليس مختارا لوجوده، ولا هو بمشيئته وفعله ؟ وهل يصح حمد الماء على آثاره وموجباته ؟ أو النار والحديد وغيرها في عقل أو فطرة ؟ وانما يحمد الفاعل المختار بقدرته ومشيئته على أفعاله الحميدة ، هذا الذي ليس في العقول والفطر سواه فخلافه خارج عن الفطرة والعقل ، وهو لا ينكر خروجه عن الشرائع والنبوات ، بل يتبجح بذلك ويعده فخراً .

الثاني : إثبات ربوبيته تعالى : يقتضى فعله بمشيئته واختياره وتدبيره وقدرته وليس يصح في عقل ولا فطرة ربوبية الشمس لضوئها والماء لتبريده والنبات الحاصل به ولا ربوبية شيء أبدا لما لا قدرة له عليه البتة ، وهل هذا الا تصريح بجحد الربوبية ؟ . فالقوم كنوا للاغمار ، وصرحوا لأولى الأفهام .

الثالث : إثبات ملكه . وحصولُ ملك لمن لا اختيار له ، ولا فعل ولا مشيئة غير معقول بل كل مملوك له مشيئة واختيار وفعل أتم من هذا الملك وأكمل ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ ألا تذكرون ﴾[1]

(١) سورة النحل : آلية ١٧ .

الرابع : من كونه مستعانا ، فإن الاستعانة بمن لا اختيار له ولا مشيئة ولا قدرة محال .

الخامس : من كونه مسئولا أن يهدي عباده فسؤال من لا اختيار له محال . وكذلك من كونه منعما .

فصل

في بيان تضمنها للرد على منكري تعلق علمه تعالى بالجزئيات . وذلك من وجوه :

أحدهما : كمال حمده ، وكيف يستحق الحمد من لا يعلم شيئا من العالم وأحواله وتفاصيله ولا عدد الافلاك ، ولا عدد النجوم ، ولا من يطيعه ممن يعصيه ، ولا من يدعوه ممن لا يدعوه؟

الثاني : أن هذا مستحيل أن يكون الها ، وأن يكون ربا ، فلا بد للاله المعبود والرب المدبر أن يعلم عابده ويعلم حاله .

الثالث : من اثبات رحمته فإنه يستحيل أن يرحم من لا يعلم .

الرابع : اثبات مملكته . فإن ملكا لا يعرف أحدا من رعيته البته . ولا شيئا من أحوال ملكته البتة . ليس بملك بوجه من الوجوه .

الخامس : كونه مستعانا .

السادس : كونه مسئولا أن يهدي سائله ويجيبه . ،

السابع : كونه منعما .

التاسع : كونه غضبانا على من خالفه .

العاشر : كونه مجازيا ، يدين الناس بأعمالهم يوم الدين فنفى علمه بالجزئيات مبطل لذلك كله .

فصل

في بيان تضمنها للرد على منكري النبوات . وذلك من وجوه :

أحدها : إثبات حمده التام . فإنه يقتضي كمال حكمته وأن لا يخلق خلقه عبثا ، ولا يتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولذلك نزه نفسه عن هذا في غير موضع من كتابه، وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة، وأن يكون ما أنزل على بشر من شيء فانه ما عرفه حق معرفته ولا عظمه حق عظمته ، ولا قدره حق قدره بل نسبه إلى مالا يليق به، ويأباه حمده ومجده . فمن أعطى الحمد حقه علما ومعرفة وبصيرة استنبط منه (أشهد أن محمدا رسول الله) كما يستنبط من (أشهد ألا إله إلا الله) وعلم قطعا أن تعطيل النبوات في منافاته للحمد كتعطيل صفات الكمال ، وكاثبات الشركاء والأنداد .

الثاني : إلهيته، وكونه إلها فإن ذلك مستلزم لكونه معبودا مطاعا ولا سبيل الى معرفة ما يعبد به ويطاع الا من جهة رسله .

الثالث : كونه ربا ، فإن الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم وجزاء محسنهم باحسانه ومسيئهم باساءته هذا حقيقة الربوبية، وذلك لا يتم الا بالرسالة والنبوة .

الرابع : كونه رحمانا رحيما . فإن كمال رحمته : أن يعرف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم اليه ويباعدهم منه، ويثيبهم على طاعته ويجزيهم بالحسنى وذلك لا يتم الا بالرسالة والنبوة . فكانت رحمته مقتضية لها .

الخامس : ملكه، فإن ا لملك يقتضى التصرف بالقول، كما أن الملك يقتضي التصرف بالفعل، فالملك هو المتصرف بأمره وقوله، فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء والمالك هو المتصرف في ملكه بفعله والله له الملك فهو المتصرف في خلقه بالقول والفعل.

وتصرفه بقوله نوعان : تصرف بكلماته الكونيه، وتصرف بكلماته الدينية وكمال الملك بهما، فارسال الرسل : موجب كمال ملكه وسلطانه، وهذا هو الملك المعقول في فطر الناس وعقولهم فكل ملك لا تكون له رسل يبثها في أقطار مملكته فليس بملك . وبهذه الطريق يعلم وجود ملائكته وأن الايمان بهم من لوازم الايمان بملكه . فإنهم رسل الله في خلقه وأمره .

السادس : ثبوت يوم الدين . وهو يو م الجزاء، الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرا وشرا وهذا لا يكون الا بعد ثبوت الرسالة والنبوة، وقيام الحجة التي بسببها يدان المطيع والعاصي .

السابع : كونه معبودا فإنه لا يعبد إلا بما يحبه ويرضاه ولا سبيل للخلق إلى معرفة ما يحبه ويرضاه الا من جهة رسله . فإنكار رسله انكار لكونه معبودا .

الثامن : كونه هاديا إلى الصراط المستقيم . وهو معرفة الحق والعمل به وهو أقرب الطرق الموصلة الى المطلوب . فإن الخط المستقيم : هو أقرب خط موصل بين نقطتين وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل فتوقفه على الرسل ضروري، أعظم من توقف الطريق الحسي على سلامة الحواس .

التاسع : كونه منعما على أهل الهداية الى الصراط المستقيم . فإن انعامه عليهم إنما تم بارسال الرسل اليهم، وجعلهم قابلين الرسالة مستجيبين لدعوته، وبذلك ذكّرهم منته عليهم وانعامه في كتابه .

العاشر : انقسام خلقه الى منعم عليهم، ومغضوب عليهم، وضالين فان هذا الانقسام ضروري بحسب انقسامهم في معرفة الحق والعمل به : إلى عالم به عامل بموجبه وهم أهل النعمة، وعالم به معاند له، وهم أهل الغضب ،وجاهل به وهم الضالون . وهذا الانقسام إنما نشأ بعد إرسال الرسل فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة . فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة .

وهذا الانقسام ضروري بحسب الواقع. فالرسالة ضرورية وقد تبين لك بهذه الطريق والتي قبلها : بيان تضمنها للرد على من أنكر المعاد الجسماني، وقيامة الأبدان، وعرفت اقتضاءها ضرورة ثبوت الثواب والعقاب والأمر والنهي، وهو الحق الذي خلقت به وله السموات والأرض والدنيا والآخرة، وهو مقتضى الخلق والأمر، ونفيه نفي لهما .

فصل

اذا ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم . فإن حقيقة الرسالة : تبليغ كلام المرسل فاذا لم يكن ثم كلام فماذا يبلغ الرسل ؟ بل كيف يعقل كونه رسولا ؟ ولهذا قال غير واحد من السلف : من انكر ان يكون الله متكلما او يكون القرآن كلامه . فقد أنكر رسالة محمد ﷺ بل ورسالة جميع الرسل، والتي حقيقتها تبليغ كلام الله تبارك وتعالى ولهذا قال منكرو رسالته ﷺ عن القرآن (إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا الأ قول البشر)[١]، وإنما عنوا القرآن المسموع الذي بلغوه وأنذروا به . فمن قال : إن الله لم يتكلم به فقد ضاها قوله قولهم تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

---

(١) سورة المدثر : الآية ٢٤ - ٢٥ .

فصل

في بيان تضمنها للرد على من قال بقدم العالم وذلك من وجوه :

احدها : إثبات حمده، فإنه يقتضي ثبوت أفعاله، لا سيما وعامة مواد الحمد في القرآن أو كلها، إنما هي على الأفعال وكذلك هو ههنا . فإنه حمد نفسه على ربوبيته المتضمنة لأفعاله الاختيارية ومن المستحيل : مقارنة ا لفعل لفاعله . هذا ممتنع في كل عقل سليم وفطرة مستقيمة فالفعل متأخر عن فاعله بالضرورة . وأيضا فانه متعلق الارادة والتأثير والقدرة، ولا يكون متعلقها قديما البتة .

الثاني : إثبات ربوبيته للعالمين، وتقريره : ما ذكرناه، والعالم كل ماسواه فثبت أن كل ما سواه مربوب والمربوب مخلوق بالضرورة وكل مخلوق حادث بعد أن لم يكن فاذا ربوبيته تعالى لكل ما سواه تستلزم تقدمه عليه وحدوث المربوب، ولا يتصور أن يكون العالم قديما، وهو مربوب أبداً فإن القديم مستغن بأزليته عن فاعل له، وكل مربوب فهو فقير بالذات فلا شيء من المربوب بغنى ولا قديم .

الثالث : إثبات توحيده فإنه يقتضي عدم مشاركة من العالم له في خصائص الربوبية والقدرمن خصائص الربوبية، فالتوحيد ينفي ثبوته لغيره ضرورة . كما ينفي ثبوت الربوبية والالهية لغيره .

فصل

ثم أعلم انه سبحانه قسم الناس الى ثلاثة أقسام :

منعم عليهم، وهم أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق وأتبعوه.

ومغضوب عليهم وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه .

وضالون، وهم الذين جهلوه فأخطأوه . فكل من كان أعرف للحق، وأتبع له كان أولى بالصراط المستقيم . ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم : هم أولى بهذه الصفة فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم جهلوا الحق أو رفضوه . ثم إنا رأينا آثار أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر، وقلبوها بلاد إسلام وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى ، فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله : بأبي بكر وعمر وأصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم، وهو كما فسروه فإنه صراطهم الذي كانوا عليه، وهو عين صراط نبيهم . وهم الذين أنعم الله عليهم، وغضب على أعدائهم، وحكم لهم بالضلال .

وقال ابو العالية رفيع الرياحي ، والحسن البصري، وهما من أجل التابعين : الصراط المستقيم : رسول الله ﷺ وصاحباه .

وقال أبو العالية أيضا في قوله : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ هم آل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وهذا حق : فإن آله وأبا بكر وعمر على طريق واحدة . ولا خلاف بينهم وموالاة بعضهم بعضا وثناؤهم عليهما ومحاربة من حاربا ومسالمة من سالما، معلومة عند الأمة خاصها وعامها .

وقـال زيد بن أسلم :الذين أنـعم عليـهم هم رسـول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر .

ولا ريب أن المنعم عليـهم : هم أتبـاعـه، والمغـضـوب عليـهم : هم الخارجون عن اتباعه .

وأتبع الأمة لهم وأطوعهم : أصحابه وأهل بيته . وأتباع الصحابة له ، السمع والبصر ، أبو بكر وعمر فقد تبين أن الصراط المستقيم طريق أصحابه وأتباعه(١) . انتهى هذا الفصل ملخصاً .

(١) انظر لهذه الأقوال تفسير ابن كثير : ١ / ٢٧ - ٢٨ ، والدر المنثور للسيوطي : ١ / ١٥ .

فصل

وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب : انتهي الى هاتين الكلمتين وعليهما مدار العبودية والتوحيد . حتى قيل : أنزل الله مئة كتاب وأربعة كتب : جمع معانيها في التوراة والانجيل والقرآن وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن . وجمع معاني القرآن في المفصل وجمع معاني المفصل في الفاتحة ، ومعاني الفاتحة في ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين[1] : فنصفهما له تعالى وهو ﴿ إياك نعبد ﴾ .

ونصفهما لعبده وهو (إياك نستعين) وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه .

والعبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع .

والعرب تقول : طريق معبد أي مذلل والتعبد : التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له ، لم تكن عابدا له ، ومن خضعت له بلا محبة ، لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا .

---

(١) حديث قسمت الفاتحة : الترمذى ٢٩٥٣ ، السنن الكبري للبيهقى : ٢ / ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٣٧٥ ، ومسند الحميدى : ٩٧٣ ، ومسند الربيع بن حبيب : ١ / ٤٦ ، والتمهيد لابن عبدالبر : ٢ / ٢٣٠ ، وزاد المسير لابن الجوزى : ٤ / ٤١٣ .

ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبا لهم بل هو غاية مطلوبهم ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم : منكرين لكونه إلها، وان اقروا بكونه ربا للعالمين وخالقا لهم، فهذا غاية توحيدهم . وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به من الشرك، كما قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم؟ ليقولن الله ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [٢] ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ؟ سيقولون لله ﴾[٣] ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره كما أنه لا خالق غيره ولا رب سواه .

والاستعانة : تجمع أصلين الثقة بالله والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره، مع ثقته به لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه، مع عدم ثقته به لحاجته اليه، ولعدم من يقوم مقامه. فيحتاج إلى اعتماده عليه . مع أنه غير واثق به .

والتوكل معنى يلتئم من أصلين : من الثقة ، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهذا الأصلان ـ وهما التوكل والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع قرن بينهما فيها هذا أحدها .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٨٧ .

(٢) سرة الزمر الآية ٣٨ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ٨٤ ، ٨٥ .

الثاني : قول شعيب ﴿ وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾(١) .

الثالث : قوله تعالى ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه ﴾(٢) .

الرابع : قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا و اليك المصير ﴾(٣) .

الخامس : قوله تعالى ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾(٤) .

السادس : قوله تعالى ﴿ ذلكم الله ربي، عليه توكلت وإليه أنيب ﴾(٥) .

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل اذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها والاستعانة وسيلة اليها ولأن ﴿ إياك نعبد ﴾ متعلق بالوهيته واسمه (الله)، ﴿ وإياك نستعين ﴾

---

(١) سورة هود الآية ٨٨ .

(٢) سورة هود الآية ١٢٣ .

(٣) سورة الممتحنة الآية ٤ .

(٤) سورة المزمل الآية ٨ ، ٩ .

(٥) سورة الشورى الآية ١٠ .

متعلق بربوبيته واسمه الرب . فقدم ﴿ إياك نعبد ﴾ على ﴿ إياك نستعين ﴾ كما تقدم اسم الله على الرب في أول السورة ولأن ﴿ إياك نعبد ﴾ قسم الرب . فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و﴿ إياك نستعين ﴾ قسم العبد فكان مع الشطر الذي له وهو ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إلى آخر السورة ولأن العبادة المطلقة : تتضمن الاستعانة، من غير عكس . فكل عابد لله عبودية تامة : مستعين به ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته . فكانت العبادة أكمل وأتم . ولهذا كان قسم الرب، ولأن الاستعانة جزء من العبادة، من غير عكس، ولأن الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له، ولأن العبادة لاتكون إلا من مخلص،والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص، ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة . وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك وأداء حقه : أهم من التعرض لصدقته . ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يجب أن يشكر، والاعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رقها أعانك عليها فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الاعانة وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الاعانة من الله له أعظم .

والعبودية محفوفة باعانتين : إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، واعانة بعدها على عبودية أخرى وهكذا أبدا حتى يقضي العبد نحبه .

ولأن ﴿ إياك نعبد ﴾ له . ﴿ وإياك نستعين ﴾ به وماله مقدم على ما به . لأن ماله متعلق بمحبته ورضاه . وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تتعلق بمشيئته .

والمتعلق بمحبته : طاعاتهم وإيمانهم فالكفار أهل مشيئته ، والمؤمنون أهل محبته . ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدا وكل مافيها فإنه به تعالى وبمشيئته فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿ إياك نعبد ﴾ على ﴿ إياك نستعين ﴾ .

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ففيه : أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم وفيه الاهتمام وشدة العناية به ، وفيه الأبدان بالاختصاص المسمى بالحصر . فهو في قوة : لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك .

والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها ، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدما ، وسيبويه نص على الاهتمام ، ولم ينف غيره . وفي اعادة (إياك) مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين ، ففي اعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه فاذا قلت لملك مثلا : إياك أحب وإياك أخاف كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته والاهتمام بذكره ماليس في قولك : إياك أحب وأخاف .

فصل

إذا عرف هذا : فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام أجلها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الاعانة على مرضاته وهو الذي علمه النبيﷺ لحبه معاذ بن جبل . فقال : « يا معاذ والله اني لأحبك فلا تنسى أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »[١] .

فانفع الدعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب : اسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا وعلى دفع مايضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه . فتأملها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه : تأملت أنفع الدعاء : فإذا هو سؤال العون على مرضاته ، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

ومقابل هؤلاء : القسم الثاني : وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة ولا استعانة ، بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه ، فانه سبحانه يسأله من في السموات

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم ، انظر : كشف الخفاء : ١ / ٢١٢ حديث رقم ٥٤٨ ، وانظر : سنن أبي داود : ١٥٢٧ ، وفتح الباري : ١١ / ١٣٣ .

والأرض يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء وأبغض خلقه، عدوه ابليس، ومع هذا فسأله حاجة فاعطاه اياها، ومتعه بها، لكن لما لم تكن عونا له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله اياه، ولم يكن عونا على طاعته، كان مبعداً له عن مرضاته، قاطعا له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم ان اجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظا لا بخلا وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله : فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ويراه يقضي حوائج غيره،فيسئ ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة .

وعلامة هذا : حمله على الأقدار وعتابه الباطن لها . كما قيل :

وعاجز الرأي مضياع لفرصته

حتي اذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ولكن ما حيلتي ؟ والأمر ليس الى .

والعاقل خصم نفسه والجاهل خصم اقدار ربه فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئا معينا خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدا،

فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سوالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال : تسأله ان يجعله عونا على طاعته وبلاغا الى مرضاته ولا يجعله قاطعا لك عنه، ولا مبعدا عن مرضاته . ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه إبتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده . قال الله تعالى ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا ﴾[1] أي ليس كل من اعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته وما ذاك لكرامته على ولكنه ابتلاء مني وامتحان له . أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفر فأسلبه اياه وأخول فيه غيره ؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه على، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له : أيصبر ؟ فاعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط ؟ فيكون حظه السخط .

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وان الفقر اهانة فقال : لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته على، ولم ابتله بالفقر لهوانه على .

---

(١) سورة الفجر الآيات ١٥، ١٦، ١٧ .

فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره فإنه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لاهانته انما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالاعراض عنه ومعصيته فله الحمد على هذا وعلى هذا وهو الغني الحميد . فعادت سعادة الدنيا والآخرة الى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

فصل

القسم الثالث : من له نوع عبادة بالاستعانة . وهؤلاء نوعان :

احدهما : القدرية قال ابن عباس رضي الله عنهما : الايمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده .

النوع الثاني : من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه وكان مأموراً بازالته ، لازاله .

فأن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة .

قلت : هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله وتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان وان لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن ، وان شاءه الناس فيوجب له هذا اعتمادا عليه وتفويضا إليه وطمأنينة به وثقة به ويقينا بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه مليء به ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه ، فهذه حال المتوكل ، ومن كان هكذا مع الله ، فالله كافيه ولا بد . قال الله تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[1] أي كافيه .

والحسب : الكافي . فإن كان مع هذا من أهل التقوى فهو :

---

(١) سورة الطلاق الآية ٣ .

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضرر وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولم يدر إلا مع ما يحبه ويرضاه فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأعراضه وطلبها منه، وأنزلها به فقضيت له، وأسعف بها، ولكن لا عاقبة له سواء كانت أموالا ورياسة أوجاها عند الخلق أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين . فإنها من جنس الملك الظاهر .

والأموال لا تستلزم الاسلام فضلا عن الولاية والقرب من الله فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه اياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم معرفة بالله ودينه والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه، فالحال من الدنيا، فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره الحقه بالملوك العادلين البررة، ، والا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة .

فصل

إذا عرف هذا : فلا يكون العبد متحققا بـ﴿ إياك نعبد ﴾ إلا بأصلين عظيمين أحدهما : متابعة الرسول ﷺ .

والثاني : الاخلاص للمعبود . فهذا تحقيق ﴿ إياك نعبد ﴾ والناس منقسمون على هذين الأصلين ايضا إلى أربعة اقسام . أحدها : أهل الاخلاص للمعبود والمتابعة وهم أهل ﴿ إياك نعبد ﴾ حقيقة فاعمالهم كلها لله وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله ومنعهم لله، وحبهم لله وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده . لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا ولا ابتغاء لجاه عندهم ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم ولا هربا من ذمهم بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

فالعمل لأجل هؤلاء، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجاؤهم للضر والنفع منهم، لا يكون من عارف بهم البتة بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه ولا يعامل أحد الخلق دون الله الا لجهله بالله وجهله بالخلق ،وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس أثر معاملتهم، إذا كانت أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه وهو الذي ابتلى عباده بالموت والحياة لأجله .

قال الله تعالى ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾[١] وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملا .

قال الفضيل بن عياض هو أخلصه وأصوبه قال يا أبا على ما أخلصه وأصوبه؟ قال : إن العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ماكان لله، والصواب : ما كان على السنة . وهذا هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عمل صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحد ﴾[٢] .

وفي قوله : ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾[٣] فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه على متابعة أمره وما عدا ذلك فهو مردود على عامله يعود عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورا .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « كل عمل ليس عليه امرنا فهو رد »[٤] وكل عمل بلا اقتداء فانه لا يزيد عامله من الله إلا بعدا فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء .

---

(١) سورة الملك الآية ٢ .

(٢) سورة الكهف الآية ١١٠ .

(٣) سورة النساء الآية ١٢٥ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٦ / ١٨٢ ، وفتح البارى : ١٣ / ٢٤٨ ، والتمهيد لابن عبدالبر : ٢ / ٨٢ ، والقرطبي : ١ / ٣٥٨ .

فصل

الضرب الثاني : من لا اخلاص له ولا متابعة . فليس عمله موافقا لشرع، ولا هو خالصا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله . وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم الى الله عز وجل ولهم أوفر نصيب من قوله ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا : فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾[١] يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والاخلاص .

الضرب الثالث : من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العباد والمنتسبين الى طريق الزهد والفقر وكل من عبد الله بغير أمره واعتقده قربة الي الله فهذا حاله .

الضرب الرابع : من أعماله متابعة الأمر، لكنا لغير الله . كطاعة المرائين، كالرجل يقاتل ريا ء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها لكنها غير خالصة فلا تقبل ﴿ وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[٢] فكل أحد لم يؤمر الا بعبادة الله بما أمر، والاخلاص له في العبادة . وهم أهل ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٨ .

(٢) سورة البينة الآية ٥ .

فصل

ثم أهل مقام ﴿ إياك نعبد ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالآثار والتخصيص أربعة أصناف :

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها اشقها على النفوس وأصعبها قالوا لأنه أبعد الأشياء من هواها وهو حقيقة التعبد ، قالوا والأجر على قدر المشقة .

الصنف الثاني : قالوا : أفضل العبادات التجرد ، والزهد في الدنيا ، والتقلل منها غاية الامكان ، واطراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها . ثم هؤلاء قسمان :

فعوامهم : ظنوا أن هذا غاية فشمروا إليه وعملوا عليه . ودعوا الناس اليه وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها . وخواصهم رأوا هذا مقصودا لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته . فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله ودوام ذكره بالقلب واللسان والاشتغال بمراقبته ، دون كل ما فيه تفريق وتشتيت له .

ثم هؤلاء قسمان : فالعارفون المتبعون منهم : إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولوفرقهم وأذهب جمعيتهم .

الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد فراوه أفضل من ذي النفع القاصر .

الصنف الرابع : قالوا : أن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته .

فأفضل العباذات وقت الجهاد : الجهاد وان آل الى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك اتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا : القيام بحقه، والاشتغلال به عن الورد المستحب وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعلم الجاهل : الاقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الآذان : ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال باجابة المؤذن والأفضل في أوقات الصلوات الخمس ا لجد والنصح في ايقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج الى الجامع وإن بعد كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج الى المساعدة بالجاه، أو البدن أو المال الاشتغال بمساعدته، واغاثة لهفته وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه حتى كأن الله تعالى يخاطبك به فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الاكثار من التعبد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد . فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم واقرائهم القرآن عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم . فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير ، فهي خير من عزلتهم فيه ، وعزلتهم في الشر فهي أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم ازاله أو قلله فمخالطتهم حينئذ أفضل من عزلتهم .

فالأفضل في كل وقت وحال :إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف قبلهم أهل التعبد . فمن خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقض وترك عبادته . فهو يعبد الله على وجه واحد وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره . بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى اين كانت . فمدار تعبده عليها . فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على السير إليها . واشتغال بها حتى تلوح له منزلة أخرى . فهذا دابه في سيره حتى ينتهي سيره فان رأيت العلماء رأيته معهم . وإن رأيت العباد رأيته معهم وان رأيت المجاهدين رأيته معهم وأن رأيت الذاكرين رأيته معهم وان رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وأن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم ، فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ولم تقيده القيود ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه ، فهذا هو المتحقق بـ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ حقا ، القائم بهما صدقا . ملبسه ما تهيأ ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر به في كل وقت بوقته ،

ومجلسه حيث انتهى ووجده خاليا، لا تملكه اشارة، ولا يتعبده قيد ولا يستولى عليه رسم حر مجرد دائر مع الأمر حيث دار يدين بدين الأمر أني توجهت ركائبه ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، ورقها وكلها منفعة حتى شوكها . وهو موضع العظة منه على المخالفين لأمر الله والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله قد صحب الله بلا خلق وصحب الناس بلا نفس بل اذا كان مع الله عزل الخلائق من البين وتخلى عنهم واذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها فواها له ما أغربه بين الناس وما أشد وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه والله المستعان . وعليه التكلان .

فصل

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة . وهم في ذلك أربعة أصناف .

الصنف الأول : نفاة الحكم والتعليل، الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصرف الارادة فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر من غير أن يكون سببا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة، كما قالوا في الخلق . إنه لم يخلق ما خلقه لعلة ولا لغاية هي المقصودة به ولا لحكمة تعود إليه منه، وليس في المخلوقات أسباب مقتضيات لمسبباتها ولا فيها قوى ولا طبائع، فليست النار سببا للاحراق ولا الماء سببا للإرواء والتبريد، واخراج النبات ولا فيه قوة ولا طبيعة تقتضي ذلك وحصول الاحراق والري ليس بهما، لكن باجراء العادة الاقترانية على حصول هذا عند هذا، لا بسببه ولا بقوة قامت به، وهكذا الأمر عندهم في أمره الشرعي سواء لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور به صفة أقتضت حسنه، ولا المنهي عنه صفة اقتضت قبحه .

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة . وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها وليست قرة أعينهم، وليست الأوامر سرور قلوبهم، وغذاء أرواحهم وحياتهم، ولهذا يسمونها تكاليف . أي قد كلفوا بها، ولو سمى مدع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفا وقال : أني إنما أفعله بكلفة، لم يعده أحد محبا له، ولهذا أنكر هؤلاء أو

كثير منهم ـ محبة العبد لربه وقالوا : إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذي يتمتع به، لا أنه يحب ذاته . فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه .

وحقيقه العبودية : هي كمال المحبة، فأنكروا حقيقة العبودية ولبها .

وحقيقة الالهية : كونه محبوبا بغاية الحب المقرون بغاية الذل والخضوع والإجلال والتعظيم ، فأنكروا كونه كحبوبًا . وذلك إنكار لإلهيته، وشيخ هؤلاء : هو الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن القسرى في يوم أضحى[١] ، وقال : انه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا، وإنما كان انكاره : لكونه تعالى محبوبا محبا ولم ينكر حاجة ابراهيم اليه، والتي هي الخلة عند الجهمية التي يشترك فيها جميع الخلائق فكلهم أخلاء لله عندهم . وقد بينا فساد قولهم هذا وانكارهم محبة الله من أكثر من ثمانين وجها وذكرنا وجوب تعلق المحبة بالحبيب الأول من جمع طريق الأدلة النقلية والعقلية والذوقية والفطرية وأنه لاكمال للإنسان بدون ذلك البتة، كما أنه لاكمال لجسمه إلا بالروح والحياة، ولا لعينه الا بالنور الباصر ولا لأذنه الا بالسمع وأن الأمر فوق ذلك وأعظم .

---

(١) قتل الجعد بن درهم عام ١١٨هـ شهد عليه ميمون بن مهران فطلبه هشام بن عبدالملك ، فظفر به ، وسيره إلي خالد بن عبدالله القسري (٦٦ - ١٢٦هـ في العراق فقتله . انظر : النجوم الزاهرة : ١ / ٣٢٢ .

فصل

الصنف الثاني : القدرية النفاة، وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل . وبينهما أعظم التباين .

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطا بالجزاء البتة، وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته وينعم من أفنى عمره في معصيته . وكلاهما بالنسبة اليه سواء جوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم عملا منه، وأكثر وأفضل درجات والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

والقدرية أوجبت عليه رعاية الأصلح . وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنا لها، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال منة الصدقة عليه بلا ثمن فقاتلهم الله ما أجهلهم بالله وأغرهم به .

والطائفتان جائرتان، منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب . وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب . مقتضيات لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وان الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومنّه، وصدقته على عبده، إن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه ارادتها والقدرة عليها، وحببها إليه، وزينها في قلبه وكره إليه أضدادها ومع هذا فليست ثمنا لجزائه وثوابه ولا هي على قدره، بل غايتها ـ إذا بذل العبد فيها نصيحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه : أن تقع شكرا له على بعض نعمه عليه، فلو طالبه بحقه

لبقيت عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها . فلذلك لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ عدم دخول الجنة بالعمل كما قال : « لن يدخل أحدا منكم الجنة عمله » وفي لفظ : « لن يدخل أحدا منكم الجنة بعمله » وفي لفظ : « لن ينجى أحدا منكم عمله ،قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل »[١] أثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾[٢] وتنافى بينهما إذا توارد النفي والاثبات ليس على معنى واحد فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال وكون الأعمال ثمنا وعوضا لها : ردا على القدرية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة. وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله وأغلظهم عنه حجابا . وحق لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة .

ويكفى في جهلهم بالله : أنهم لم يعلموا : أن أهل سماواته وأرضه في منته، وأن من تمام الفرح والسرور والغبطة واللذة : اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة . وأعظمهم منه منزلة وأقربهم إليه : أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقرارا بها وذكرا لها

---

(١) انظر روايات الحديث فى البخارى : ٧/ ١٥٧ ، ومسلم صفات المنافقين باب (١٧) رقم (٧٥)، ومسند أحمد : ٢/ ٢٦٤ ، وزاد المسير لابن الجوزى : ٨/ ١٧٢، وفتح البارى : ١/ ١٢٧ ، وإتحاف السادة المتقين : ٢/ ١٩٧ ، وكنز العمال للهندى : ٥٣١٥ .

(٢) سورة النحل : الآية ٣٢ .

وشكرا عليها، ومحبة له لأجلها، فهل يتقلب أحد قط إلا في منته ﴿ يمنون عليك أن اسلموا، قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ان كنتم صادقين ﴾[١] واحتمال منّة المخلوق : إنما كانت نقصا لأنه نظيره. فإذا منّ؟ عليه استعلى عليه ورأى الممنون عليه نفسه دونه هذا مع أنه ليس في كل مخلوق، فلرسول الله ﷺ المنة على امته، وكان أصحابه يقولون « الله ورسوله أمن »[٢] ولا نقص في منّة الوالد على ولده ولا عار عليه في احتمالها وكذلك السيد على عبده، فكيف برب العالمين الذي إنما ينقلب الخلائق في بحر منته عليهم ومحض صدقته عليهم : بلا عوض منهم البتة ؟

وان كانت اعمالهم أسبابا لما ينالونه من كرمه وجوده. فهو المنان عليهم بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها، وكملها وقبلها منهم على ما فيها وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله ﴿ بما كنتم تعملون ﴾[٣]، فهذه باء السببية، ردًا على الجبرية والقدرية الذين يقولون :لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ولا هي أسباب له، وإنما غايتها أن تكون أمارات . قالوا :وليست أيضًا مطردة لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر . فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة .

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٧ .

(٢) فتح البارى : ٨ / ٥١ ، وسنن البيعقى : ٦ / ٣٣٩ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٤٢ .

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء كما هي مبطلة لقول أولئك وأدلة المعقول والفطرة ايضا تبطل قول الفريقين وتبين لمن له قلب ولب : مقدار قول أهل السنة، وهم الفرقة الوسط . المثبتون لعموم مشيئة الله وقدرته، وخلقه العباد واعمالهم، والحكمة التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها وانعقادها بها شرعًا وقدرًا، وترتيبها عاجلاً واجلاً وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعا من الحق وارتكبت لأجله نوعا من الباطل، بل أنواعا، وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه : ﴿ والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾[1] ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[2] .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٣ .

(٣) سورة الجمعة : الآية ٤ .

فصل

الصنف الثالث : الذين زعموا أن فائدة العبادة : رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم عليها، وخروج قواها عن قوى النفوس السبعية والبهيمية، فلو عطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم، والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها، وتنقلها الى مشابهة العقول المجردة فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها وهذا يقوله طائفتان . من الفلاسفة .

فصل

وأما الصنف الرابع وهم الطائفة : المحمدية الإبراهيمية : اتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر في عبادته ومراده بها فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشبه ا لباطلة، والقواعد الفاسدة، ماعندهم وراء ذلك شيء من المحال وقنعوا بما الفوه من الخيال، ولو علوا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم لما ارتضوا بدونه ولكن عقولهم قصرت عنه ولم يهتدوا إليه بنور النبوة، ولم يشعروا به ليجتهدوا في طلبه، ورأ أن ما معهم خير من الجهل، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده فتركب من هذه الأمور إيثار ماعندهم على ما سواه، وهذه بلية الطوائف والمعافى من عافاه الله .

فأعلم أن سر العبودية وغايتها وحكمتها : إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل ولم يعطلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلها، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل، وأن حقيقة الإلهية لا تقتضي الإله، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم والمقدور بالقدرة والأصوات بالسمع والاحسان بالرحمة، والعطاء بالجود فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها وما شرعت لأجله ؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، ولها خلقوا ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار ؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها :

نسبة لله إلى ما لا يليق به، ويتعالى عنه من خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلا . ولم يخلق الإنسان عبثا ولم يتركه سدى مهملا، قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ﴾[١] أي لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم، وقد صرح تعالى بهذا في قوله ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾[٢] فالعبادة : هي الغاية التي خلق لها الجن والانس والخلائق كلها .

قال تعالى ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾[٣] أي مهملا .

قال الشافعي : لايؤمر ولا ينهي[٤] .

وقال غيره لا يثاب ولا يعاقب والصحيح : الأمران . فإن الثواب والعقاب مترتب على الأمر والنهي، والأمر والنهي، طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة إمتثالهما .

وقال تعالى ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾[٥] وقال ﴿ وما خلقنا السموات

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١١٥ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٣) سورة القيامة : الآية ٣٦ .

(٤) الدر المنثور : ٦/ ١٩٦ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٩١ .

والأرض ومابينهما الا بالحق ﴾[١] وقال ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾[٢] فأخبرك أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن : أمره ونهيه، وثوابه وعقابه فاذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق فكيف بقال : أنه لا علة له، ولا حكمة هي غايته ؟ أو أن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لاينكد عليهم الثواب يالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية . وارتباضها بمخالفة العوائد .

فليتأمل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه حق معرفته، فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والإنقياد لأمره .

فأصل العبادة محبة الله، بل افراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه . وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها . فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه . فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة . ولهذا جعل تعالى ا تباع

---

(١) سورة الحجر : الآية ٨٥ .

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٢ .

رسوله علما عليها وشاهدا لمن ادعاها فقال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾[١] فجعل اتباع رسوله مشروطا بمحبتهم لله وشرطا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة .

فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله .

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ : هي حب الله ورسوله وطاعة أمره ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحب الى العبد مما سواهما . فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة ولا يهديه الله قال الله تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كساءها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[٢]

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله أو

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه أو معاملة أحدهم على معاملة الله فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وان قاله بلسانه فهو كذب منه، واخبار بخلاف ما هو عليه.

وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله . فذلك المقدم عنده أحب من الله ورسوله .

فصل

وبنى﴿ إياك نعبد ﴾ على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ويرضاه من قول اللسان، والقلب والجوارح .

فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع . فأصحاب ﴿ إياك نعبد ﴾ حقا هم أصحابها .

فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وقول اللسان : الأخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له والقيام بذكره، وتبليغ أوامره .

وعمل القلب : كالمحبة له، والتوكل عليه والانابة إليه، والخوف منه والرجاء له، واخلاص الدين له، والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره والرضى به وعنه، والمولاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والاخبات إليه والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله .

وعمل الجوارح بدونها، أما عديم المنفعة أو قليل المنفعة . وأعمال الجوارح : كالصلاة والجهاد ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز والاحسان إلى الخلق ونحو ذلك . فـ﴿ إياك نعبد ﴾ : التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها و ﴿ إياك نستعين ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها و﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، والهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين الى الله بهما .

فصل

وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿ إياك نعبد واياك نستعين ﴾ فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وعبادته من أولهم إلى آخرهم .

فقال نوح لقومه﴿ اعبدوا الله مالكم من الله غيره ﴾[١] .

وكذلك قال هود وصالح وشعيب (٧ : ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥) وإبراهيم.

قال الله تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٢] .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٣] .

وقال تعالى ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم ، وان هذه أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاتقون ﴾[٤] .

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٩ .

(٢) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٢٥ .

(٤) سرة المؤمنون : الآية ٥١ ، ٥٢ .

فصل

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه .

فقال ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾(١) .

وقال ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾(٢) .

وهذا يبين أن الوقف التام في قوله ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾(٣) ههنا ، ثم يبتدىء ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾(٤) فهما جملتان تامتان مستقلتان : أي أن له من في السموات ومن في الأرض عبيدا وملكا .

ثم استأنف جملة أخرى فقال ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ﴾ ، لا يأنفون عنها ولا يتعاظمون ولا يستحسرون ، فيعيون .

يقال : حسر واستحسر ، إذا تعب وأعيا بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم فالأول وصف لعبيد ربوبيته . والثاني : وصف لعبيد إلهيته .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٧٢ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٢٠٦ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ١٩ ، ٢٠ .

وقال تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ﴾[١] إلى آخر السورة .

وقال ﴿ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾[٢] .

وقال ﴿ واذكر عبدنا داود ﴾[٣] .

وقال ﴿ واذكر عبدنا أيوب ﴾[٣٤] .

وقال ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب ﴾[٥] .

وقال عن سليمان ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾[٦] .

وقال عن المسيح ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾[٧] فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى ووصف أكرم خلقه عليه، واعلاهم عنده منزلة بالعبودية في اشرف مقاماته .

فقال تعالى ﴿ وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾[٨] .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٦٣ ـ ٧٧ .

(٢) سورة الانسان : الآية ٦ .

(٣) سورة ص : الآية ١٧ .

(٤) سورة ص : الآية ٤١ .

(٥) سورة ص : الآية ٤٥ .

(٦) سورة ص : الآية ٣٠ .

(٧) سورة الزخرف : الآية ٥٩ .

(٨) سورة البقرة : الآية ٢٣ .

وقال تبارك وتعالى ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ﴾[١] .

وقال ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾[٢] فذكره بالعبودية في مقام انزال الكتاب عليه والتحدي بأن يأتوا بمثله .

وقال ﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾[٣] فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه .

وقال ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ﴾[٤] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء .

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »[٥] .

وفي الحديث : « أنا عبد أكل كما يأكل العبيد وأجلس كما يجلس العبيد »[٦] .

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو . قال : « قرأت في التوراة صفة محمدﷺ : محمد رسول الله عبدي ورسولي ، سميته المتوكل . ليس

---

(١) سورة الفرقان : الآية ١ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١ .

(٣) سورة الجن : الآية ١٩ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ١ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١ / ٢٣ - ٢٤ ، فتح البارى : ١٠ / ٤٧٨ ، ١٢ / ١٤٤ .

(٦) إتحاف السادة : ٨ / ٤٠٦ ، الدر المنثور : ٤ / ١١٥ ، كنز العمال : ٤٠٧٩١ .

بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر »[١] .

وجعل سبحانه البشارة المطلقة لعباده فقال تعالى ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾[٢] .

وجعل الأمن المطلق لهم، فقال تعالى ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾[٣] .

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به فقال ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[٤] .

وقال ﴿ انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾[٥] .

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية مراتب الدين، وهو الإحسان . فقال في حديث جبريل وقد سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كانك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك »[٦] .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢ / ١٧٤ ، ٢ / ٣٢٨ .

(٢) سورة الزمر : الآية ١٧ ، ١٨ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٦٨ ، ٦٩ .

(٤) سورة الحجر : الآية ٤٢ .

(٥) سورة النحل : الآية ٩٩ ، ١٠٠ .

(٦) البخارى ، إيمان : ١٥٣٧ / ١٨ .

فصل

في لزوم ﴿ إياك نعبد ﴾ لكل عبد إلى الموت .

قال الله تعالى لرسوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[١] .

وقال أهل النار ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾[٢] .

واليقين ههنا : هو الموت باجماع أهل التفسير .

وفي الصحيح ، وفي قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال « أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه »[٣] أي الموت وما فيه ، فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف ، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان[٤] « من كان يعبد ؟ وما يقول في رسول الله ﷺ » ويلتمسان منه الجواب . وعليه عبودية أخرى يوم القيامة ، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود فيسجد المؤمنون ، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود[٥] ، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك ، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحا مقرونا بأنفاسهم لا يجدون له تعبا ولا نصبا .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩٩ .

(٢) سورة المدثر : الآية ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) البخارى : ٣ / ٢٨٣ ، فتح البارى : ٥ / ٩٣ ، سنن البيهقى : ٤ / ٧٦ .

(٤) سؤال الملك ، مسند الإمام أحمد : ٣ / ٢٣٤ .

(٥) وهو قول الله تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ [سورة القلم الآية ٤٢] .

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه التعبد فهو زنديق كافر بالله ورسوله وانما وصل إلى مقام الكفر بالله والانسلاخ من دينه .

وكلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت أعظم، والواجب عليه منها اكثر من الواجب على من دونه .

ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم .

الواجب على أولى العزم : أعظم من الواجب على من دونهم . وكل أحد بحسب مرتبته .

فصل

في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة :

العبودية نوعان عامة وخاصة :

فالعبودية العامة : عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله برهم وبحرهم مؤمنهم وكافرهم . فهذه عبودية القهر والملك .

قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . ان كل من في السموات والأرض الا آت الرحمن عبدا ﴾(١)، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم .

وقال تعالى ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾(٢) ، فسماهم عباده مع ضلالهم، لكن تسمية مقيدة بالاشارة، وأما المطلقة فلم تجيء الا لأهل النوع الثاني كما سيأتي بيانه ان شاء الله .

وقال تعالى ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴾(٣) .

---

(١) سورة مريم : الآية ٨٨ ـ ٩٣ .

(٢) سرة الفرقان : الآية ١٧ .

(٣) سورة الزمر : الآية ٤٦ .

وقال : ﴿ وما الله يريد ظلما للعباد ﴾[١] ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾[٢] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة .

أما النوع الثاني : فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر .

قال تعالى ﴿ يا عبادي لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾[٣] .

وقال ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيبتعون أحسنه ﴾[٤] .

وقال ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾[٥] ، فالخلق كلهم عبيد ربوبيته ، وأهل طاعته وولايته : هم عبيد إلهيته ولا يجيء في القرآن اضافة العباد إليه مطلقا إلا لهؤلاء .

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية : فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه . إما منكّرا كقوله ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ﴾[٦].

---

(١) سورة غافر : الآية ٣١ .

(٢) سورة غافر : الآية ٤٨ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٦٨ .

(٤) سورة الزمر : الآية ١٧ ، ١٨ .

(٥) سورة الفرقان : الآية ٦٣ .

(٦) سورة مريم : الآية ٩٣ .

والثاني معرفا باللازم كقوله ﴿ وما الله يريد ظلما للعباد ﴾[١] ﴿ ان الله قد حكم بين العباد ﴾[٢] .

الثالث : مقيدا بالاشارة ونحوها كقوله ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾[٣] .

الرابع : أن يذكروا في عموم عباده . فيدرجوا مع أهل طاعته في الذكر . كقوله ﴿ أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴾[٤] .

الخامس : أن يذكروا موصوفين بفعلهم كقوله ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[٥] .

وقد يقال : إنما سماهم عباده إذا لم يقنطوا من رحمته وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة .

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة : لأن أصل معنى اللفظة : الذل والخضوع . يقال (طريق معبد) إذا كان مذللا و (فلان عبده الحب) إذا ذلله، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعا واختيارا وانقيادا لأمره ونهيه وأعداؤه خضعوا له قهرا ورغما .

---

(١) سورة غافر : الآية ٣١ .

(٢) سورة غافر : الآية ٤٨ .

(٣) سرة الفرقان : الآية ١٧ .

(٤) سورة الزمر : الآية ٤٦ .

(٥) سورة الزمر : الآية ٥٣ .

ونظير انقسام العبودية الي خاصة وعامة : انقسام القنوت إلى خاص وعام والسجود كذلك .

قال تعالى في القنوت الخاص ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما ؟ يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ﴾[١] .

وقال في حق مريم ﴿ وكانت من القانتين ﴾[٢] وهو كثير في القرآن .

وقال في القنوت العام ﴿ بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون ﴾[٣] أي خاضعون اذلاء .

وقال في السجود الخاص ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾[٤] .

وقال ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾[٥] وهو كثير في القرآن .

وقال في السجود العام ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والاصال ﴾[٦] .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٩ .

(٢) سورة التحريم : الآية ١٢ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١١٦ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٢٠٦ .

(٥) سورة مريم : الآية ٥٨ .

(٦) سورة الرعد : الآية ١٥ .

ولهذا كان هذا السجود الكره غير السجود المذكور في قوله : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾[١] .

فخص بالسجود هنا كثيرا من الناس وعمهم بالسجود في سورة النحل وهو سجود الذل والقهر والخضوع فكل أحد خاضع لربوبيته ذليل لعزته . مقهور تحت سلطانه تعالى .

---

(١) سورة الحج : الآية ١٨ .

فصل

في مراتب ﴿ إياك نعبد ﴾ علما وعملا :

للعبودية مراتب بحسب العلم والعمل . فأما مراتبها فمرتبتان .

احداهما : العلم بالله والثانية العلم بدينه .

فأما العلم به سبحانه فخمس مراتب العلم بذاته وصفاته وأفعاله، وأسمائه، وتنزييه عما لا يليق به .

والعلم بدينه مرتبتان :

إحداهما : دينه الأمر الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية : دينه الجزائي المتضمن ثوابه وعقابه وقد دخل في هذا العلم . العلم بملائكته وكتبه ورسله .

وأما مراتبها العلمية فمرتبتان : مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين .

فأما مرتبة أصحاب اليمين : فأداء الواجبات وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات .

وأما مرتبة المقربين : فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم متورعين عما يخافون ضرره وخاصتهم : قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلا عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل درجات لا يحصيها إلا الله .

فصل

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة . من كملها كمل مراتب العبودية وبيانها : أن العبودية تخصه . والأحكام التي للعبودية خمسه : واجب ومستحب، وحرام، ومكروه ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح . فواجب القلب منه متفق على وجوبه ومختلف فيه فالمتفق على وجوبه كالاخلاص والتوكل، والمحبة والصبر والإنابة والخوف والرجاء والتصديق الجازم والنية في العبادة وهذه قدر زائد على الاخلاص فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره .

ونية العباد لها مرتبتان .

احداهما : تمييز العبادة عن العادة .

والثانية : تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض والأقسام الثلاثة واجبة . وكذلك الصدق، والفرق بينه وبين الاخلاص أن للعبد مطلوبا وطلبا، فالاخلاص : توحيد مطلوبه . والصدق توحيد طلبه فالاخلاص : أن لا يكون المطلوب منقسما . فالصدق بذل الجهد، والاخلاص : أفراد المطلوب .

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة وكذلك النصح في العبودية . ومدار الدين عليه وهو بذل الجهد في ايقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له .

وأصل هذا واجب وكماله مرتبة المقربين .

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين .

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة.

قال الإمام أحمد ذكر الله الصبر في تسعين موضعا من القرآن، أو بضعا وتسعين، وله طرفان أيضا : واجب مستحق وكمال مستحب . والمقصود : أن يكون ملك الأعضاء وهو القلب قائما بعبوديته لله هو ورعيته .

وأما المحرمات التي عليه : فالكبر والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق، وهي نوعان : كفر ومعصية . فالكفر كالشك والنفاق والشرك وتوابعها .

والمعصية نوعان كبائر وصغائر فالكبائر : كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمنى زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريما من الزنا وشرب الخمر، وغيرهما من الكبائر الظاهرة ولاصلاح للقلب ولا للجسد الا باجتنابها، والتوبة منها، والا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن وهذه الآفات انما تنشأ من الجهل بعبودية القلب وترك القيام بها فوظيفة﴿ إياك نعبد ﴾ على القلب قبل الجوارح فاذا جهلها وترك القيام بها احتلأ بأضدادها ولا بد، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها .

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها ودقتها .

ومن الصغائر أيضا : شهوة المحرمات وتمنيتها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، وبحسب تفاوت درجات المشتهى، فشهوة الكفر والشرك : كفر .

وشهوة البدعة : فسق .

وشهوة الكبائر : معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب ،وإن تركها عجزا عن بذله مقدوره في تحصيلها : استحق عقوبة الفاعل، لتنزله منزلته في احكام الثواب والعقاب، وان لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، وقالوا : هذا القاتل يا رسول الله فما بال المقتول ؟ قال :إنه كان حريصا على قتل صاحبه »[١] فتنزله منزلة القاتل، لحرصه في الاثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب .

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ٤ / ٤٠١، ٥ / ٤٨، والبخاري، إيمان : ٢٢، ١ / ١٣، فتن ١٠٠، ٨ / ٩٢، ومسلم، فتن : ١٤، ٤ / ٢٢١٣ - ٢٢١٤ .

فصل

وأما عبوديات اللسان الخمس : فواجبها : النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن . وهو ما يتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالإذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول (ربنا ولك الحمد) بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد وأمر بالتكبير .

ومن واجبه : رد السلام وفي ابتدائه قولان ومن واجبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وارشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة وصدق الحديث .

وأما مستحبه : فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك .

وأما محرمه فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها وكالقذف وسب المسلم واداء بكل قول والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدها تحريما .

ومكروهه : التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف . هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين ؟ على قولين . ذكرهما ابن المنذر وغيره .

أحدهما : أنه لا يخلو كل ما يتكلم به إما أن يكون له أو عليه . وليس في حقه شيء لاله ولا عليه واحتجوا بالحديث المشهور، وهو « كل كلام ابن آدم عليه . لا له، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه »[١] .

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله . ولا يكتب إلا الخير والشر .

وقالت طائفة : بل هذا الكلام مباح لا له ولا عليه كما في حركات الجوارح قالوا : لأن كثيرا من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهى وهذا شأن المباح.

والتحقيق : أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين بل أما راجحة وأما مرجوحة . « لأن للسان شأنا ليس لسائر الجوارح، وإذا أصبح ابن ادم فان الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول : اتق الله فانما نحن بك، فأن استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا »[٢] « وأكثر ما يكب الناس على مناخرهم في النار حصائد السنهم »[٣] .

وكل ما يتلفظ به اللسان فأما أن يكون مما يرضى الله ورسوله أولا ، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح . وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوى الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه في الآخرة .

---

(١) الترمذي : ٢٤١٢ ، مشكاة المصابيح : ٢٢٧٥ ، الدر المنثور : ٣/ ١٥٣٨ ، إتحاف السادة : ٧/ ٤٦٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/ ٩٦ ، الترمذي : ٣٤٠٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/ ٢٣١ و ٢٣٦ .

وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون الا مضرة فتأمله .

فإن قيل فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل .

قيل : حركته بها عند الحاجة إليها راجحة وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده فتكون عليه لا له .

فإن قيل : فإذا كان الفعل متساوي الطرفين كانت حركة اللسان الوسيلة إليه كذلك، إذا الوسائل تابعة للمقصود في الحكم .

قيل : لا يلزم ذلك . فقد يكون الشيء مباحا، بل واجبا، ووسيلته مكروهة كالوفاء بالطاعة المنذورة : هو واجب، مع أن وسيلته، وهو النذر مكروه منهي عنه، وكذلك الحلف المكروه مرجوح مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه . ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة . وهذا كثير جدا . فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه .

فصل

وأما العبوديات الخمس على الجوارح : فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضا اذ الحواس خمسة . وعلى كل حاسة عبوديات، فعلى السمع : وجوب الانصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والايمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء .

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة . من رده أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الايمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك .

وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يحب أن يطلعك عليه مالم يكن متضمنا لحق لله يجب القيام به أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه .

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تخشى الفتنة بأصواتهن إذا لم تدع إليه حاجة، من شهادة أو معاملة أو استفتاء أو محاكمة، أو مداواة ونحوها . وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها ولايجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه إلا إذا خاف السكون إليه والانصات، فحينئذ يجب تجنب سماعها وجوب سد الذرائع .

ونظير هذا المحرم : لايجوز له تعمد شم الطيب، وإذا حملت الريح رائحة وألقتها في مشامه لم يجب عليه سد أنفه .

ونظير هذا نظرة الفجأة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب من العلم وقراءة القرآن وذكر الله واستماع كل ما يحبه الله وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكرهه ولا يعاقب عليه، والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها وينفقها ويستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها. ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الاجنبيات بشهوة مطلقا، ويغيرها الا لحاجة.

كنظر الخاطب، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب وذوي المحرم.

والمستحب النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانا وعلما والنظر في المصحف والنظر في آيات الله المشهودة ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. فإن له فضولا كما للسان فضولا، وكم قاد فضوله إلى فضول عز التخلص منها، وأعيى دواؤها.

وقال بعض السلف : كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام .

والمباح : النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة .

ومن النظر الحرام : النظر إلى العورات . وهي قسمان . عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب . ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينيه لم يكن عليه شيء، وذهبت هدراً[١] ، بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته . وان ضعفه بعض الفقهاء لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله، وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله كعورة له هناك ينظرها أو ريبة هو مأمور أو مأذون له في اطلاعها .

وأما الذوق الواجب : فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت . فإن تركه حتى مات مات عاصيا قاتلا لنفسه .

قال الإمام احمد وطاووس : « من اضطر إلي أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار »[٢] .

ومن هذا : تناول الدواء إذا تيقن أن في ترك تناوله الهلاك على أصح القولين وان ظن الشفاء به فهل هو مستحب أو مباح ؟ .

والذوق الحرام : كذوق الخمر والسموم القاتلة . والذوق الممنوع من الصوم الواجب .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٥٢٧

(٢) أبو داود ، أطعمة ٧ رقم الحديث ٣٧٥٤ ، ٣ / ٣٤٤ .

وأما المكروه : فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة وهو الطعام الذي تفجأ آكله ولم يرد أن يدعوك إليه وأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وفي السنن أن رسول الله ﷺ « نهى عن طعام المتبارين »[١] وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس .

والذوق المستحب : أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه . والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه . والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب اجابتها او المستحب .

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب اجابتها للأمر به عن الشارع .

والذوق المباح : ما لم يكن فيه اثم ولا رجحان .

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم فالشم الواجب : كل شم تعين طريقا للتمييز بين الحلال والحرام .

وأما الشم الحرام : فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات للافتتان بما وراءه .

وأما الشم المستحب : فشم ما يعينك على طاعة الله ويقوى الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل .

---

(١) انظر : تفسير القرطبى : ٢ / ٢٣٣ .

ومن هذا هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ « من عرض عليه ريحان فلا يرده فإنه طيب الريح خفيف المحمل »(١).

والمكروه : كشم طيب الظلمة وأصحاب الشبهات ونحو ذلك .

والمباح : مالا منع فيه من الله ولا تبعة ، ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع .

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس . فاللمس الواجب كلمس الزوجة حين يجب جماعها .

والحرام : لمس مالا يحل من الأجنبيات .

والمستحب : إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عن الحرام واعفاف أهله .

والمكروه : لمس الزوجة في الإحرام للذة ، وكذلك في الاعتكاف وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه .

ومن هذا لمس بدن الميت لغير غاسله لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريما له ، ولهذا يستحب ستره عن العيون .

والمباح : مالم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية .

---

(١) مسلم : ٤٠ كتاب الألفاظ من الأدب (٢٠) حديث ٢٢٥٣ ، ومشكاة المصابيح ٣٠١٦ .

وهذه المراتب أيضا مرتبة على البطش باليد والمشي بالرجل وأمثلتها لا تخفى .

فالتكسب المقدور للتفقه على نفسه وأهله وعياله واجب وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف والصحيح : وجوبه ليمكنه من أداء دينه .

ولا يجب لاخراج الزكاة .

وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر .

والأقوى في الدليل وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك . والمشهور عدم وجوبه .

ومن البطش الواجب : اعانة المضطر ورمي الجمار ومباشرة الوضوء والتيمم .

والحرام : كقتل النفس التي حرم الله، ونهب المال المغصوب، وضرب من لايحل ضربه ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد[١]، أو ما هو أشد تحريما منه عند أهل المدينة كالشطرنج[٢]، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفا أو نسخا إلا مقرونا بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة مافيه مضرة على

---

(١) مسند أحمد : ٤ / ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ .

(٢) القرطبي : ٨ / ٣٣٩ ، ابن عدى في الكامل : ٤ / ١٤٤١ .

المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولا سيما أن كسبت عليه مالا ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾[١].

وكذلك كتابة المفتي على الفتوى مايخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهدا مخطئا، فالاثم موضوع عنه.

وأما المكروه، فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة مالا فائدة في كتابته ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب : كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة المسلم.

والإحسان بيده بأن يعين صانعا، أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه في دلو المستسقى، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك ومنه : لمس الركن بيده في الطواف.

والمباح : مالا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب : فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلا، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دعى إليه، والمشي الى صلة رحمه وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

---

(١) سورة البقرة : الآية ٧٩.

والحرام : المشي إلى معصية الله ، وهو من رجل الشيطان ، قال تعالى : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾[١] قال مقاتل : استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند ابليس .

وكذلك تعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب ايضا .

فواجبه في الركوب في الغزو والجهاد والحج الواجب .

ومستحبه في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع : هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض والتحقيق : أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة من تعليم للمناسك، واقتداء به وكان أعون على ا لدعاء ولم يكن فيه ضرر على الدابة .

وحرامه : الركوب في معصية الله عز وجل .

ومكروهه : الركوب للهو واللعب وكل ما تركه خير من فعله .

ومباحه : الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء : القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة .

(انتهى ملخصاً من مدارج السالكين للمحقق ابن القيم)[٢]

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٦٤ .

(٢) من ص ٥٨ - ١٢٢ باختصار جيد .

قال شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ورضى عنه بمنه وكرمه: أعلم أرشدك الله لطاعته ان مقصود الصلاة وروحها ولبها هو اقبال القلب على الله تعالى فيها، فإذا صليت بلا قلب فهي كالجسد الذي لا روح فيه، ويدل على هذا قوله تعالى ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾(١) ففسر السهو بالسهو عن وقتها ـ أي اضاعته ـ والسهو عن ما يجب فيها، والسهو عن حضور القلب ويدل على ذلك الحديث الذي في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق » يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا »(٢) فوصفه باضاعة الوقت بقوله: (يرقب الشمس) وباضاعة الأركان بذكره النقر، وباضاعة حضور القلب بقوله (لا يذكر الله فيها الا قليلا) اذا فهمت ذلك (فافهم نوعًا واحداً من الصلاة وهو قراءة الفاتحة). لعل الله أن يجعل صلاتك في الصلوات المقبولة المضاعفة المكفرة للذنوب، ومن أحسن ما يفتح لك الباب في فهم الفاتحة حديث أبي هريرة الذي في صحيح مسلم: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾، قال الله: حمدني عبدي، فاذا قال: ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مالك يوم الدين ﴾ قال الله: مجدني عبدي، فإذا قال ﴿ اياك نعبد واياك

(١) سورة الماعون: الآية ٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣ / ١٤٩، ٨٥.

نستعين ﴾ ، قال الله : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليه غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، قال الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل »(١) .

فإذا تأمل العبد هذا ، وعلم انها نصفان : نصفٌ لله وهو أولها الى قوله : ﴿ اياك نعبد ﴾ ونصف للعبد دعاء يدعو به لنفسه ، وتأمل أن الذي علمه هذا هو الله تعالى وأمره أن يدعو به ويكرره في كل ركعة وأنه سبحانه من فضله وكرمه ضمن اجابة هذا الدعاء اذا دعاه باخلاص وحضور قلب لتبين له ما أضاع اكثر الناس . وها أنا أذكر لك بعض معاني هذه السورة العظيمة لعلك تصلي بحضور قلب ، ويعلم قلبك ما نطق به لسانك ، لأن ما نطق به اللسان ولم يعقد عليه القلب ليس بعمل صالح كما قال تعالى : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾(٢) .

وأبدأ بمعنى الاستعاذة ، ثم البسملة ، على طريق الاختصار والايجاز .

فمعنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ألوذ بالله واعتصم بالله واستجير بجنابه من شر هذا العدو ، أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه لأنه أحرص ما يكون على العبد إذا أراد عمل الخير من صلاة أو قراءة أو غير ذلك ،وذلك أنه لا حيلة لك في دفعه إلا بالاستعاذة بالله لقوله تعالى ﴿إنه يراكم هو

(١) مسلم ، صلاة ٣٨ ، ١/ ٢٩٦ .

(٢) سورة الفتح : الاية ١١ .

وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾[1] فإذا طلبت من الله أن يعيذك منه، واعتصمت به كان هذا سببا في حضور القلب فاعرف معنى هذه الكلمة ولا تقلها باللسان فقط كما عليه أكثر الناس .

وأما البسملة فمعناها أدخل في هذا الأمر من قراءة او دعاء أو غير ذلك، باسم الله لا بحولي ولا بقوتي ، بل افعل هذا الأمر مستعينا بالله ومتبركا باسمه تبارك وتعالى هذا في كل أمر تسمى في أوله من أمر الدين أو أمر الدنيا ، فإذا أحضرت في نفسك أن دخولك في القراءة بالله مستعينا به، متبرئا من الحول والقوة كان هذا أكبر الأسباب في حضور القلب، وطرد الموانع من كل خير .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة أحدهما أبلغ من الآخر، مثل العلام والعليم .

قال ابن عباس : هما اسمان رقيقان احدهما أرق من الآخر أي أكثر من الاخر رحمة .

وأما الفاتحة فهي سبع آيات . ثلاث ونصف لله وثلاث ونصف للعبد، فأولها ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

فاعلم أن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري فاخرج بقوله الثناء باللسان الثناء بالفعل الذي يسمى لسان الحال فذلك من نوع الشكر .

---

(١) سورة الأعراف : الاية ٢٧ .

وقوله : على الجميل الاختياري أي الذي يفعله الانسان بارادته وأما الجميل الذي لا صنع له فيه مثل الجمال ونحوه فالثناء يسمى مدحا لا حمدا، والفرق بين الحمد والشكر[١] : أن الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه، سواء كان إحسانا إلى الحامد، أو لم يكن والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر، لأنه يكون على المحاسن والاحسان، فإن الله يحمد على ماله من الأسماء الحسنى، وما خلقه في الآخرة والأولى، ولهذا قال ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً... ﴾ الآية[٢]، وقال : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات .

واما الشكر فانه لا يكون إلا على الأنعام فهو أخص من الحمد من هذا الوجه لكنه يكون بالقلب واليد واللسان، ولهذا قال تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾[٤] والحمد انما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أسبابه، الألف واللام في قوله الحمد للاستغراق أي جميع أنواع الحمد أعم من جهة أنواعه والحمد لله لا لغيره فأما الذي لا صنع للخلق فيه مثل خلق الانسان، وخلق السمع والبصر والسماء والأرض والأرزاق وغير ذلك فواضح، وأما ما يحمد عليه المخلوق مثل مايثنى به على

---

(١) انظر : ابن كثير : ١ / ٢٢ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١١١ .

(٣) سورة فاطر الآية ١ .

(٤) سورة سبأ : الآية ١٣ .

الصالحين والأنبياء والمرسلين، وعلى من فعل معروفا خصوصا إن أسداه إليك، فهذا كله لله أيضا بمعنى أنه خلق ذلك الفاعل، واعطاء ما فعل به ذلك وحببه إليه وقواه عليه وغير ذلك من افضال الله الذي لو يختل بعضها لم يحمد ذلك المحمود فصار الحمد كله لله بهذا الاعتبار .

وأما قوله : ﴿ لله رب العالمين ﴾ (فالله) عَلَمٌ على ربنا تبارك وتعالى[١] ومعناه : إلا له أي المعبود لقوله ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾، أي المعبود في السموات، والمعبود في الأرض ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾[٢] الآيتين .

وأما (الرب) فمعناه المالك المتصرف[٣] واما (العالمين) فهو اسم لكل ما سوى الله تبارك وتعالى[٤] فكل ماسوى الله تبارك وتعالى، فكا ماسواه من ملك ونبي وأنسي وجني وغير ذلك مربوب مقهوريتصرف فيه فقير محتاج كلهم صامدون إلى واحد لا شريك له في ذلك وهو الغني الصمد .

وذكر بعد ذلك ﴿ مالك يوم الدين ﴾، وفي قراءة أخرى ﴿ ملك يوم الدين ﴾[٥] فذكر في أول هذه السورة التي هي أول المصحف الإلوهية

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير : ١ / ٢٠ .

(٢) سورة مريم : الاية ٩٣ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير : ١ / ٢٣ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) انظر الكلام عن ﴿ مالك يوم الدين ﴾ : تفسير ابن كثير : ١ / ٢٤ .

والربوبية والملك كما ذكره في آخر سورة في المصحف ﴿ قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس ﴾[١] فهذه ثلاثة أوصاف لربنا تبارك وتعالى ذكرها مجموعة في موضع واحد في آخر ما يطرق سمعك من القرآن فينبغي لمن نصح نفسه أن يعتني بهذا الموضع، ويبذل جهده في البحث عنه، ويعلم ان العليم الخبير لم يجمع بينهما في أول القرآن ثم في آخره الا لما يعلم من شدة حاجة العباد الى معرفتها، ومعرفة الفرق بين هذه الصفات فكل صفة لها معني غير معنى الصفة الأخرى كما يقال : محمد رسول الله وخاتم النبيين وسيد ولد آدم فكل وصف له معنى غير ذلك الوصف الآخر .

إذا عرفت أن معني الله هو الآله وعرفت أن الآله هو المعبود ثم دعوت الله أو ذبحت له أو نذرت له فقد عرفت أنه الله .

فإن دعوت مخلوقا طيبا أو خبيثا، أو ذبحت له أو نذرت له فقد زعمت أنه هو الله .

فمن عرف انه قد جعل شمسًا أو تاجرًا برهة من عمره هو الله عرف ما عرفت بنو اسرائيل لما عبدوا العجل فلما تبين لهم ارتاعوا، وقالوا ما ذكر الله عنهم ﴿ ولما سقط في ايديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾[٢] .

---

(١) سورة الناس : الآية ١ ـ ٣ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٤٩ .

وأما الرب فمعناه المالك المتصرف فالله تعالى مالك كل شيء، وهو المتصرف فيه، وهذا حق، ولكن أقربه عباد الأصنام الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كما ذكر الله عنهم في القرآن في غير موضع، كقوله تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ... ﴾ إلى قوله ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾[١].

فمن دعا الله في تفريج كربته وقضاء حاجته، ثم دعا مخلوقا في ذلك خصوصا ان اقترن بدعائه نسبة نفسه الى عبوديته مثل قوله في دعائه : فلان عهدك أو قول عبد علي او عبد النبي أوالزبير فقد أقر له بالربوبية، وفي دعائه عليا أو الزبير بدعائه الله تبارك وتعالى واقراره له بالعبودية ليأتي له بخير أو ليصرف عنه شراً مع تسمية نفسه عبداً له، قد أقر له بالربوبية، ولم يقر لله بأنه رب العالمين كلهم بل جحد بعض ربوبيته .

فرحم الله عبداً نصح نفسه، وتفطن لهذه المهمات، وسأل عن كلام أهل العلم، وهم أهل الصراط المستقيم ،هل فسروا السورة بهذا أم لا ؟ وأما الملك فيأتي الكالم عليه، وبذلك ان قوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وفي القراءة الأخرى ﴿ ملك يوم الدين ﴾ فمعناه عند جميع المفسرين كلهم، فسره الله في قوله ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾[٢] فمن عرف تفسير هذه الآية

---

(١) سورة يونس : الآية ٣١ .

(٢) سورة الإنفطار : الآية ١٧ ـ ١٩ .

عرف تخصيص الملك بذلك اليوم مع أنه سبحانه مالك كل شيء ذلك اليوم وغيره، عرف ان التخصيص لهذه المسألة الكبيرة العظيمة التي بسبب معرفتها دخل الجنة من دخلها، وبسبب الجهل بها دخل النار من دخلها .

فهذه بعض المعاني في قوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ بإجماع المفسرين كلهم، وقد فسرها الله سبحانه في سورة ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ كما قدمت لك .

وأعلم ارشدك الله أن الحق لا يتبين إلا بالباطل كما قيل : « وبضدها تتبين الأشياء » .

فتأمل ما ذكرت لك لعلك ان تعرف ملة أبيك إبراهيم ودين نبيك فتحشر معهما، ولا تصد عن الحوض يوم الدين كما يصد عنه من صده عن طريقهما، ولعلك ان تمر على الصراط يوم القيامة، ولا تزل عنه كما زل عن صراطهما المستقيم في الدنيا من زل فعليك بادامة دعاء الفاتحة مع حضور قلب وخوف وتضرع .

واما قوله ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فالعبادة كمال المحبة وكمال الخضوع، والخوف والذل، وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

فالأول : التبرؤ من الشرك .

والثاني : التبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل، وهذا المعنى فى غير آية من القرآن[١] ، فقوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ أي اياك نوحد ومعناه انك تعاهد ربك أن لا تشرك به في عبادته أحداً، لا ملكا ولا نبيا ولا غيرهما، كما قال للصحابة ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون ﴾[٢] .

فتأمل هذه الآية واعرف ما ذكرت لك في الربوبية، أنها التي نسبت الى تاج[٣] ومحمد بن شمسان، فإذا كان الصحابة لو يفعلونها مع الرسل كفروا بعد إسلامهم فكيف بمن فعلها في تاج وأمثاله وقوله : ﴿ واياك نستعين ﴾ هذا فيه أمران : أحدهما سؤال الاعانة من الله كما مر أنها من نصف العبد .

وأما قوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾، فهذا هو الدعاء الصريح الذي هو حظ العبد من الله، وهو التضرع إليه والالحاح عليه أن يرزقه هذا الطلب العظيم، الذي لم يعط أحد في الدنيا والآخرة أفضل منه، كما من الله على رسوله ﷺ بعد الفتح بقوله ﴿ ويهديك صراطًا مستقيمًا ﴾ .

والهداية ها هنا : التوفيق، والإرشاد[١] ، وليتأمل العبد ضرورته إلى هذه المسألة، فإن الهداية الى ذلك تتضمن العلم والعمل الصالح على وجه الاستقامة والكمال والثبات على ذلك الى أن يلقي الله .

---

(١) ابن كثير : ١ / ٢٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٨٠ .

(٣) لعله : محمد بن محمد بن محمد المتوفى سنة (١٠٠٧هـ) احد الصوفية ، انظر : الاعلام : ٧/ ٦١، وخلاصة الأثر : ١ / ٤٧٤ .

والصراط : الطريق الواضح .

والمستقيم : الذي لا عوج فيه ، والمراد بذلك الدينى الذي أنزله الله على رسوله ﷺ وهو ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ وهم رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأنت دائما في كل ركعة تسأل الله أن يهديك الى طريقهم ، وعليك من الفرائض ان تصدق الله أنه هو المستقيم ، وكلما خالفه من طريق أو علم أو عبادة فليس بمستقيم ، بل معوج وهذه أول الواجبات من هذه الآية وهو اعتقاد ذلك بالقلب ، وليحذر المؤمن من خدع الشيطان وهو اعتقاد ذلك مجملا وتركه مفصلا فان اكفر الناس من المرتدين يعتقدون ان رسول الله ﷺ على الحق وأن ما خالفه باطل ، فإذا جاء بما لا تهوى أنفسهم ، فكما قال تعالى ﴿ فريقا كذبوا وفريقا يقتلون ﴾[٢] .

وأما قوله : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فالمغضوب عليهم هم العلماء الذين لم يعملوا بعلمهم ، والضالون العاملون بلا علم فالأول صفة اليهود والثاني صفة النصارى[٣] .

وكثير من الناس إذا رأى في التفسير أن اليهود مغضوب عليهم وأن النصارى ضالون ، ظن الجاهل أن ذلك مخصوص بهم ، وهو يقر أن ربه فارض عليه ان يدعو بهذا الدعاء ويتعوذ من طريق أهل هذه الصفات فيا سبحان الله كيف يعلمه الله ويختار له ، ويفرض عليه ان يدعو به دائما مع أنه لا حذر

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٢٧ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٧٠ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير : ١ / ٢٩ - ٣٠ .

عليه منه، ولا يتصور أنه يفعله، هذا من ظن السؤ بالله والله أعلم هذا آخر الفاتحة .

وأما أمين فليست من الفاتحة ولكنها تأمين على الدعاء معناها اللهم استجب[١]، فالواجب تعليم الجاهل لئلا يظن أنها من كلام الله، والله أعلم .

وهذه مسائل مستنبطة من سورة الفاتحة .

الأولى : ﴿ اياك نعبد واياك نستعين ﴾ فيها التوحيد .

الثانية : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فيها المتابعة .

الثالثة : أركان الدين الحب والرجاء والخوف فالحب في الأولى والرجاء في الثانية والخوف في الثالثة .

الرابعة : هلاك الأكثر في الجهل بالآية الأولى أعنى استغراق الحمد ربوبية العالمين .

الخامسة : أول المنعم عليهم وأول المغضوب عليهم والضالين .

السادسة : ظهور الكرم والحمد في ذكر المنعم عليهم .

السابعة : ظهور القدرة والمجد في ذكر المغضوب عليهم والضالين .

الثامنة : دعاء الفاتحة مع قوله لا يستجاب الدعاء من قلب غافل .

التاسعة : قوله ﴿ صراط الذين انعمت عليهم ﴾ فيه حجة الإجماع، .

---

(١) آمين لها عن السلف معان كثيرة، راجع ابن كثير : ١ / ٣١ .

العاشرة : ما في الجملة من هلاك الإنسان إذا وكل إلى نفسه .

الحادية عشر : ما فيها من النص على التوكل .

الثانية عشر : ما فيها من التنبيه على بطلان الشرك .

الثالثة عشر : التنبيه على بطلان البدع .

الرابعة عشر : آيات الفاتحة كل آية منها لو يعلمها الإنسان صار فقيها ، وكل آية افرد معناها بالتصانيف والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم* الحمد لله رب العالمين* الرحمن الرحيم* مالك يوم الدين ﴾ .

وتضمنت ثلاث الآيات ثلاث مسائل :

الآية الأولى فيها المحبة لأن الله منعم والمنعم يحب على قدر انعامه .

والمحبة تنقسم إلى أربعة أنواع : محبة شركية ، وهي محبة الذين قال الله فيهم ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ﴾[١] إلى قوله ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾[٢] .

المحبة الثانية : حب الباطل وأهله وبغض الحق وأهله ، وهذه صفة المنافقين .

والمحبة الثالثة : طبيعية وهي محبة المال والولد ، فإذا لم تشغل عن طاعة الله ولم تعن على محارم الله فهي مباحة .

والمحبة الرابعة : حب آل التوحيد وبغض أهل الشرك ، وهي أوثق عرى الايمان ، وأعظم ما يعبد بها الإنسان ربه .

الآية الثانية فيها الرجاء والآية الثالثة فيها الخوف ﴿ إياك نعبد ﴾ أي اعبدك يا رب بما مضى بهذه الثلاث بمحبتك ورجائك وخوفك .

هذه الثلاث أركان العبادة وصرفها لغير الله شرك .

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٦٧ .

وفي هذه الثلاث الرد على من تعلق بواحدة منها كمن تعلق بالمحبة وحدها أوتعلق بالرجاء وحده أو تعلق بالخوف وحده فمن صرف منها شيئا لغير الله فهو مشرك

وفيها من الفوائد : الرد على ثلاث الطوائف التي كل طائفة تعلق بواحدة منها ، كمن عبد الله بالمحبة وحدها وكذلك من عبدَ الله بالرجاء وحده كالمرجئة وكذلك من عبد الله بالخوف وحده كالخوارج .

وأما ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ففيها توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية (اياك نعبد فيها توحيد الألوهية ﴿ وإياك نستعين ﴾ فيها توحيد الربوبية .

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فيها الرد على المبتدعين .

وأما الآيتان الأخيرتان ففيها من الفوائد : ذكر أحوال الناس قسمهم الله ثلاثة أصناف : منعم عليه ومغضوب عليه وضال .

فالمغضوب عليهم أهل علم ليس معه عمل .

والضالين أهل عبادة ليس معها علم، وأن كان سبب النزول في اليهود والنصارى فهي لكل من اتصف بذلك .

والنوع الثالث من أتصف بالعلم والعمل وهم المنعم عليهم .

وفيها من الفوائد التبرؤ من الحول والقوة لأنه منعم عليك .

وكذلك فيها معرفة الله على التمام ونفي النقائص عنه تبارك وتعالى .

وفيها معرفة الإنسان نفسه ومعرفة ربه فانه إذا كان رب فلا بد من

مربوب وإذا كان هناك عبد فلا بد من معبود واذا كان هنا هاد فلابد من مهدي، وإذا كان هنا منعم عليه فلابد من منعم، وإذا كان هنا مغضوب عليه فلابد من غاضب، وإذا كان هنا ضال فلابد من مضل .

فهذه السورة تضمنت الألوهية والربوبية ونفي النقائص عن الله، وتضمنت معرفة العبادة وأركانها والله أعلم .

إذاً عرفت أنه لابد أن يدين الناس بأعمالهم خيرها وشرها ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾[1] وأفادك ايضا أعظم الفوائد وهي التوحيد اذا عرفت ان ذلك اليوم ﴿ لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾[2] .

واما الكلمة الرابعة : فأولها وهو قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ معاهدة منك لربك عز وجل انك لا تشرك بعبادته أحداً، لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا غيرهما .

وآخرها وهو قوله ﴿ وإياك نستعين ﴾ سؤال منك لمولاك سبحانه أن يعينك على أمور دينك ودنياك ولا يكلك الى نفسك ولا إلى أحد من خلقه وإخبار منك أنك لا تستعين الا به تبارك وتعالى .

وفي الآية الخامسة والسادسة والسابعة : وهي قوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إلى آخرها تسأله تعالى أن يهديك إلى طريق الجنة الذي

---

(١) سورة الزلزلة : الآية ٧، ٨ .

(٢) سورة الانفطار : الآية ١٩ .

لااعوجاج فيه الذي نصبه طريقًا إليها لا طريق لها إلا هو التوحيد والبراءة من الشرك وتوابعه وذلك مع اداء الفرائض وترك المحارم .

والسادسة : وهي قوله ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ تبين ان الطريق الذي طلبت من مولاك ان يهديك اليه هو طريق النبي ﷺ وأصحابه الجامع لمعرفة الحق والعمل به ثم تبين ذلك وتوضح بالآية السابعة ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فالمغضوب عليهم الذين وهبهم الله الفهم فعرفوا الحق من الباطل لكن لم يعملوا .

والضالون هم الذين عملوا وطلبوا الطريق لكن بجهل فاذا سلم العبد من آفة الجهل وصار من أهل المعرفة ثم سلم من آفة الفسق وعمل بما أمره الله به صار من الذين أنعم الله عليهم من أهل الصراط المستقيم وهذا الدعاء جامع لخيري الدنيا والآخرة أما جمعه لخير الآخرة فواضح .

وأما جمعه لخير الدنيا فلأن الله تعالى يقول : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾[1] ، والايمان والتقوي هما الصراط المستقيم ، فقد أخبر أن ذلك سبب لفتح بركات السماء والأرض ، هذا في الرزق وأما في النصر فقد قال تعالى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[2] فأخبر الله ان العزة تحصل بالإيمان ، وهو الصراط المستقيم فاذا حصل العز والنصر وحصل فتح بركات السماء والأرض فهذا خير الدنيا والله أعلم .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٩٦ .

(٢) سورة المنافقون : الآية ٨ .

وقال الشيخ عبدالرحمن بن حسن رحمه الله تعالى : معنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) أي استجير بجناب الله من الشيطان أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نهيت عنه .

والإستعاذة : هي الالتجاء الى الله والاعتصام بجنابه من شر كل ذي شر ، والعياذ يكون لدفع الشر واللياذ لطلب الخير .

(والشيطان) في لغة العرب مشتق من شطن اذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير (والرجيم) فعيل بمعني مفعول أي بعد عن الخير كله .

(بسم الله الرحمن الرحيم) فالمشروع ذكر اسم الله تبركا وتيمنا واستعانة على الاتمام والتقبل .

(الله) علم على الرب تبارك وتعالى ويقال : أنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات .

قال العلامة ابن القيم : جوابا لقول من قال الله غير مشتق إن أريد بالاشتقاق مشتق من أصل آخر فهو باطل وانما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الآلهية كسائر اسمائه كالعليم والقدير ، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها ، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله .

ثم الجواب عن الجميع انا لا نعنى أسماء الاشتقاق لأنها ملاقية لمصدرها في اللفظ والمعنى ولا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله ، ولا

محذور في اشتقاق اسماء الله تعالى بهذا المعنى .

وقال الكسائي والفراء : أصله الإله حذفوا الهمزة وادغموا اللام في اللام فصارتا في اللفظ لاما واحدة مشددة مفخمة ، وهذا هو الذي ذكره أبو جعفر ابن جرير في تفسيره[١] ، وهو قول سيبويه واكثر اصحابه وذكر ابن جرير قول ابن عباس في معنى هذا الاسم (الله) ذو الألوهية والمعبودية علي خلقه اجمعين .

فان قال لنا قائل فهل لذلك فى فعل ويفعل أصل كان منه بناء هذا الأسم ؟ قيل : أما سماعًا من العرب فلا ، ولكن استدلالاً ، وما دل على أن الإلهية هي العبادة وان الإله هو المعبود وان له اصلا في فعل ويغعل ، قيل : لاتمانع بين العرب في الحكم لقول القائل يصف رجلاً بعبادة ، ويطلب مما عند الله جل ذكره : تأله فلان بالصحة ، ولا خلاف ذلك ، ذلك بيت رؤبة بن العجاج :

لله در الغانيات المده سبحن واسترجعن من تألهي

يعني من تعبدي وطلبي الله بعمل ، ولا شك أن التأله التفعل من أله يأله ، وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بفعل يفعل بغير زيادة ، وذلك ما حدثنا به سفيان عن وكيع وساق السند الى ابن عباس انه قرأ (ويذرك والهتك) قال عبادتك ويقول : إنه كان يعبد ولا يعبد (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة من رحم .

---

(١) ابن جرير : ١ / ٤١ - ٤٢ .

وفي الأثر عن عيسى أنه قال : الرحمن رحمن الدنيا ، والرحيم رحيم الآخرة .

وقال ابن القيم : (الرحمن) دال على الصفة القائمة به والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فاذا أردت فهم هذا فتأمل قوله ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[١] ﴿ إنه بهم رؤف رحيم ﴾[٢] ولم يجيء رحمن بهم فالرحمن اسمه ووصفه ، فمن حيث هو صفة جرى تابعا لاسم الله ومن حيث اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورد الاسم العلم كقوله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[٣] انتهي ملخصا .

(الحمد لله) ومعناه الثناء بالكلام على الجميل على وجه التعظيم ، فمورده اللسان والقلب والشكر يكون باللسان والجنان والأركان فهو أعم من الحمد متعلقا وأخص سببا لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها ، فبينهما عموم وخصوص وجهي يجمعان في مادة وينفرد كل واحد عن الآخر في مادة .

والألف واللام في الحمد لاستغراق اجناس الحمد وأفراده لله تعالى ، فلا يصلح منه شيء لغير الله كما قال تعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[٤] (الرب) هو المالك المصرف ، ويطلق على السيد وعلى المعبود كما

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٣ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١٧ .

(٣) سورة طه : الآية ٥ .

(٤) سورة النحل : الآية ٥٣ .

قال تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾[١] وكل ذلك صحيح .

(العالمين) جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى، والعوالم أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر[٢]، وكل قرن وجيل يسمى عالما أيضًا، والعالم مشتق من العلامة لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته .

قال ابن المعتز :

فيا عجبا كيف يعصي الاله | أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية | تدل على أنه واحد[٣]

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ تقدم الكلام عليه في البسملة .

﴿ مالك يوم الدين ﴾ قرأ بعض القراء ﴿ ملك ﴾، وقراء آخرون ﴿ مالك ﴾ وكلاهما صحيح متواتر في السبع[٤]، وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لأنه قد تقدم الأخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هناك شيئا، فلا يتكلم أحد إلا بإذنه كما قال تعالى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣١ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٢٤ تكلم عن العوالم .

(٣) تفسير ابن كثير : ١ / ٢٤ ذكر الأبيات وماقبلها .

(٤) تفسير ابن كثير : ١ / ٢٤ .

يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا ... ﴾[١] الآية . ويوم الدين يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم ان خير فخيراً وإن شراً فشر إلا من عفا عنه قاله ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين والسلف[٢]، والملك في الحقيقة هو لله تعالى قال تعالى ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾[٣] ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ العبادة في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة، وكمال الخضوع والخوف .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : العبادة أن يوافق العبد ربه فيما يحبه ويرضاه ويحب في الله ويبغض في الله .

قال العماد بن كثير[٤] ، وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر أي لا نعبد الا إياك ولا نتوكل الا عليك وهذا هوكمال الطاعة، والدين كله يرجع الى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل، وهذا في غير آية من القرآن كما قال تعالى ﴿ فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾[٥] .

---

(١) سورة النبأ : الآية ٣٨، وانظر : تفسير ابن كثير : ١ / ٢٤ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٢٤ .

(٣) سورة البقرة : الآيتان ١٠٦ - ١٠٧ .

(٤) تفسير ابن كثير : ١ / ٢٥ .

(٥) سورة هود : الآية ١٢٣ .

وتحول الكلام من الغيبة الى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسب لأنه لما أثنى على الله تعالى فكأنه أقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ لما تقدم الثناء على المسئول تبارك وتعالى ناسب ان يعقب بالسؤال كما قال : « فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل » وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله ثم يسأله حاجته وحاجة اخوانه المؤمنين بقوله : ﴿ اهدنا ﴾ لأنه أنجح وانجع للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل[١] .

والهداية ها هنا الارشاد والتوفيق .

قال العلامة ابن القيم : وكذلك اشتدت حاجة العبد ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم فليس شيء أحوج من العبد إلى هذه الدعوة وليس شيء انفع له منها فان الصراط المستقيم يتضمن علوما واردات واعمالا ومدارك ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها وقد يكون مالا يعلمه اكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه، وهو من الصراط المستقيم، وان عجز عنه وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده كسلا وتهاونا لقيام مانع وغير ذلك وما يريده قد يفعله وقد لا يفعله وما يفعله قد يقوم فيه بشروط الاخلاص وقد لا يقوم فيه .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٢٦ .

ونكته ذلك أن تحبه بقلبك، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع الا معمورا بحبه، ولا يكون لك ارادة الا متعلقة بمرضاته .

فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله .

والثاني يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله، وهذا هو الهدي ودين الحق، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به وقل ماشئت من العبارات التي هذا مركزها وقطب رحاها انتهى .

وأما آمين فهي طابع الدعاء ومعناها : اللهم استجب، وليست من الفاتحة والله أعلم وقد اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلى، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين وعلى ارشاد عباده الى سؤاله والتضرع إليه والتبري من حولهم وقوتهم، وإلى اخلاص العبادة له وتوحيده بالالهية تنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم اياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم ذلك الى جواز الصراط الحسي يوم القيامة المفضي بهم إلى جنات النعيم، في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشر مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون والله أعلم .

وأما التأمين بعد الفاتحة فثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين فإن الملائكة في السماء تقول آمين فمن وافق

قـوله الملائكـة غـفـر لـه مـا تقـدم من ذنبـه »[١] ويسـن للإمـام والمأمـومين أن يقولوها جهراً .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب جهر المأموم بالتأمين وباب جهر الإمام بالتأمين جـ١ /١٩٨، ومن كتاب التفسير باب « غير المغضوب عليهم » جـ٦ / ٢١ . وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين جـ١ / ٣٠٧ .

أسماء فاتحة الكتاب

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره[١] : صح الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني »[٢] .

فهذه أسماء فاتحة الكتاب، وسميت فاتحة الكتاب،لأنها يفتتح بكتابتها المصاحف، ويقرأ بها في الصلوات فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة . وسميت أم القرآن لتقدمها على سائرسور القرآن غيرها، وتأخر ما سواها خلفها، في القراءة والكتابة . وذلك من معناها شبيه بمعنى فاتحة ا لكتاب.

وأما تأويل اسمها، أنها السبع، فإنها سبع آيات، لا خلاف بين الجميع من القراء والعلماء في ذلك وانما اختلفوا في الآى التي صارت بها سبع آيات .

فقال أعظم أهل الكوفة : صارت سبع آيات بـ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾، وروى ذلك عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين .

وقال آخرون هي سبع آيات، وليس منهن (بسم الله الرحمن

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري : ١ / ٣٦ .

(٢) مسند أحمد : ٢ /٤٤٨ ، الدر المنثور : ١ / ٥ ، مجمع الزوائد : ٦ / ٣١١ ، تفسير الطبري : ١ / ٣٦ .

الرحيم)، لكن السابعة أنعمت عليهم وذلك قول أعظم قراء أهل المدينة ومتفقهيهم .

قلت : فالآية الأولى ﴿ الحمد لله رب العالمين *١ الرحمن الرحيم *٢ مالك يوم الدين *٣ إياك نعبد وإياك نستعين *٤ اهدنا الصراط المستقيم*٥ ﴾ .

والاستعاذة : الاستجارة [(١)]، وتأويل قول القائل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أستجير بالله دون غيره عن سائر خلقه، من الشيطان، أن يضرني في ديني، أو يصدني عن حق يلزمني لربي، والشيطان في كلام العرب، كل متمرد من الجن والانس والدواب وكل شيء، وكذلك قال ربنا جل ثناؤه ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن ﴾ [(٢)] فجعل من الانس شياطين، مثل الذي جعل من الجن .

وقال عمر بن الخطاب [(٣)] رحمة الله عليه، وركب برذونا فجعل يتبختر به فجعل يضربه، فلا يزداد الا تبخترا، فنزل عنه، وقال : ما حملتموني الا على شيطان ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي .

وانما سمي المتمرد من كل شيء شيطانا لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعالهم، وبعده من الخير .

---

(١) الطبري : ١ / ٣٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١١٢ .

(٣) انظر كلام عمر في الطبري : ١ / ٣٨ .

وأما الرجيم فهو فعيل، بمعنى مفعول .

روى عن ابن عباس، أن أول ما نزل جبريل على النبي ﷺ، علمه الاستعاذة . أن الله تعالى ذكره، وتقدست أسماؤه، أدب نبيه محمدا ﷺ، بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى، أمام جميع أفعاله وتقدم اليه في وصفه بها، قبل جميع مهماته، وجعل ما أدبه من ذلك، وعلمه إياه منه لجميع خلقه سنة يستنون بها، وسبيلا يتبعونه عليها، في إفتتاح أوائل منطقهم وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل : بسم الله على ما بطن من مراده الذي هو محذوف معنى قوله بسم الله : أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء، أو، أقرأ بتسمية الله، وكذلك معنى قول القائل، عند ابتدائه بتلاوة القرآن ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ إنما معناه أقرأ مبتدئا بتسمية الله، أو أبتدى قراءتي بتسمية الله) (تأويل قول الله) (الله [١]) عن عبدالله بن عباس هو الذي يألهه كل شيء، ويعبده كل خلق

عن عبدالله بن عباس قال : «الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين» (أما الرحمن فهو فعلان، من رحم، والرحيم فعيل منه [٢]) ومعنى (الحمد لله[٣]) الشكر خالصا لله، جل ثناؤه دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما يرى من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا

(١) انظر لكل مايتعلق بها الطبري : ١ / ٤١ .

(٢) الطبري : ١ / ٤٢ .

(٣) المرجع السابق : ١ / ٤٦ وذكر قول ابن عباس كله، وقول الحكم بن عمير .

يحصيها العد، ولا يحيط بعددها غيره أحد في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق وغذاهم به من نعيم العيش من غير استحقاق منهم لذلك عليه، ومع ما نبههم غليه، ودعاهم اليه من الأسباب المؤدية الى دوام الخلود في دار المقام، في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا وبما ذكرنا من تأويل قول ربنا، جل ذكره، وتقدست أسماؤه

﴿ الحمد لله ﴾ جاء الخبر عن ابن عباس وغيره .

عن ابن عباس قال : قال جبريل لمحمد : قل يا محمد الحمد لله . قال ابن عباس الحمد لله هو الشكر، والاستخذاء لله، والإقرار بنعمته وهدايته وابتدائه وغير ذلك .

وعن الحكم بن عمير وكانت له صحبة قال النبي ﷺ : « إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك » قال : وقد قيل إن قول القائل (الحمد لله) ثناء على الله بأسمائه وصفاته الحسني، وقوله (الشكر لله) ثناء عليه بنعمه وأياديه .

وعن الأسود بن سريع : أن النبي ﷺ قال : « ليس شيء أحب اليه الحمد من الله تعالى ولذلك أثنى على نفسه فقال الحمد لله » (١) . ولا تمانع بين أهل المعرفة بلغات العرب، من الحكم لقول القائل (الحمد لله شكرا) بالصحة فقد تبين اذ كان ذلك عند جميعهم صحيحا، أن الحمد لله قد ينطق

(١) تفسير الطبري : ١ / ٤٦ ، والدر المنثور : ١ / ١٢ .

به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يوضع موضع الحمد، لأن ذلك لو لم يكن كذلك، لما جاز أن يقال (الحمد لله شكرا) فيخرج من قول القائل الحمد لله مصدر أشكر لو لم يكن بمعنى الحمد كان خطأ أن يصدر من الحمد غير معناه وغير لفظه، فإن قال قائل : وماوجه إدخال الألف واللام في الحمد، وهل قيل حمداً لله رب العالمين؟ .

قيل : إن لدخول الألف واللام في الحمد معنى لايؤديه قول القائل حمداً بإسقاط اللألف واللام، وذلك أن دخولهما في الحمد مبني على أن معناه جميع المحامد والشكر الكامل لله، ولو اسقطنا منه مادل إلا على أن حمد قائل ذلك لله، دون المحامد كلها إذ كان بعض قول القائل حمداً لله أو حمد الله : أحمد الله حمداً، وليس التأويل في قول القائل الحمد لله رب العالمين تاليًا سورة أم القرآن أحمد الله بل التأويل في ذلك ماوصفنا قبل من أن جميع المحامد لله بالوهيته وإنعامه على خلقه . بما أنعم به عليهم من النعم، التي لا كفء لها في الدين والدنيا، والعاجل والآجل ولذلك من المعني تتابعت قراءة القراءة وعلماء الأمة على رفع الحمد من ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ دون نصبها الذي يؤدي إلى الدلالة على أن معنى تاليه كذلك : أحمد الله حمدا ولو قرأ قارىء ذلك بالنصب، لكان عندي محيلا معناه، ومستحقا العقوبة على قراءته اياه كذلك، إذا تعمد قراءته كذلك وهو عالم بخطئه وفساد تأويله، فإن قال قائل : ومامعنى قوله ﴿ الحمد لله ﴾ أحمد الله نفسه جل ثناؤه فأثنى عليها، ثم علمناه لنقول ذلك، كما قال ووصف به نفسه ؟ فإن كان ذلك كذلك فما وجه قوله تعالى ذكره إذا ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهو عز ذكره معبود لا عابد ؟ أم ذلك من

قبل جبريل، أو أو محمد رسول الله ﷺ فقد بطل أن يكون ذلك لله كلامًا !! قيل بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه ولكنه جل ذكره حمد نفسه وأثنى عليها بما هو له أهل، ثم علم ذلك عباده، وفرض عليهم تلاوته اختبارا منه لهم وابتلاء، فقال لهم : قولوا الحمد لله رب العالمين وقولوا : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾، فقوله ﴿ إياك نعبد ﴾ مما علمهم جل ذكره، أن يقولوه ويدينوا له بمعناه، وذلك موصول بقوله الحمد لله رب العالمين، وكأنه قال : قولوا هذا وهذا [١] (وأما تأويل قوله (رب [٢]) فإن الرب في كلام العرب متصرف على معان : فالسيد المطاع فيهم يدعى ربا، والرجل المصلح للشيء يدعى ربا، فربنا جل ثناؤه السيد الذي لا شبه له، ولا مثل في سؤوده والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه والمالك الذي له الخلق والأمر .

(والعالمون) : جمع عالم، والعالم جمع لا واحد له من لفظه كالأنام والرهط والجيش ونحو ذلك من الأسماء، التي هي موضوعات على جمع لا واحد له من لفظه .

والعالم اسم لأصناف الأمم وكل صنف منها عالم، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان .

فالانس عالم وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان .

والجن عالم وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه،

---

(١) الطبري : ١ / ٤٧ .

(٢) المرجع السابق : ١ / ٤٧، ٤٨ .

ولذلك جمع فقيل عالمون وواحده جمع لكون عالم كل زمان من ذلك عالم ذلك الزمان .

وهذا القول الذي قلناه قول ابن عباس، وسعيد بن جبير وهو معنى قول عامة المفسرين، عن ابن عباس : الحمد لله رب العالمين الحمد الذي له الخلق كله، السموات والأرض ومن فيهن وما بينهن مما يعلم ولا يعلم .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ [١] قد مضى البيان عن تأويل قوله الرحمن الرحيم، في تأويل بسم الله الرحمن الرحيم فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع .

﴿ مالك يوم الدين ﴾ [٢] القراء مختلفون [٣] في تلاوة ملك يوم الدين فبعضهم يتلوه ﴿ ملك يوم الدين ﴾، وبعضهم يتلوه ﴿ مالك يوم الدين ﴾، وبعضهم يتلوه ﴿ مالك يوم الدين ﴾ بنصب الكاف . فتأويل قراءة من قرأ ذلك ﴿ ملك يوم الدين ﴾ أن لله الملك يوم الدين خالصا دون جميع خلقه، الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكا جبابرة ينازعونه الملك ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية، فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين، أنهم الصغرة الأذلة، وأن له دونهم ودون غيرهم الملك والكبرياء والعزة والبهاء، كما قال جل ذكره وتقدست أسماؤه في تنزيله ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد

---

(١) الطبري : ١ / ٤٩ .

(٢) المرجع السابق : ١ / ٥٠ .

(٣) انظر : الدر المنثور : ١ / ١٤ .

القهار ﴾ (١) فأخبر تعالى أنه المنفرد يومئذ بالملك دون ملوك الدنيا ، الذين صاروا يوم الدين من ملكهم الى ذلة وصغار ، ومن دنياهم في المعاد الى خسار .

وأما تأويل قراءة من قرأ ﴿ مالك يوم الدين ﴾ .

فعن عبدالله بن عباس ﴿ مالك يوم الدين ﴾ يقول : لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكما كملكهم في الدنيا ، ثم قال ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ (٢) وقال ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ (٣) .

وقال ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ (٤) وأولى التأويلين بالآية وأصح القراءتين في التلاوة عندي التأويل الأول وهي قراءة من قرأ ملك بمعنى الملك لأن في الإقرار له بالإنفراد بالملك ايجابا لانفراده بالملك ، وفضيلة زيادة الملك على المالك اذ كان معلوما أن لا ملك الا هو مالك ، وقد يكون المالك لا ملكًا ، وبعد فإن الله جل ذكره قد أخبر عباده في الآية التي قبل قوله ﴿ ملك يوم الدين ﴾ أنه مالك جميع العالمين ، وسيدهم ، ومصلحهم والناظر لهم ، والرحيم بهم في الدنيا والآخرة بقوله الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم . فإذا كان جل ذكره قد أنبأهم عن ملكه إياهم ، كذلك بقوله (رب العالمين) فأولى الصفات من صفاته جل ذكره أن يتبع

---

(١) سورة غافر : الآية ١٦ .

(٢) سورة النبأ : الآية ٣٨ .

(٣) سورة طه : الآية ١٠٨ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ٢٨ .

ذلك مالم يحوه قوله (رب العالمين، الرحمن الرحيم) مع قرب مابين الآيتين من المواصلة والمجاورة، إذ كانت الحكمة التي لاتشبهها حكمة فبين إذًا أن أولى القراءتين بالصواب، وأحق التأويلين بالكتاب قراءة من قرأ ﴿ ملك يوم الدين ﴾، بمعنى إخلاص الملك له يوم الدين، دون قراءة من قرأ ﴿ مالك يوم الدين ﴾ بمعنى أنه يملك الحكم بينهم وفصل القضاء متفردا به دون سائر خلقه .

ومما قدمنا يتضح أن في قول الله جل ثناؤه ﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾[(١)] دلالة واضحة على أن عالم كل زمان غير عالم الزمان الذي كان قبله، وعالم الزمان الذي بعده اذ كان الله جل ثناؤه قد فضل أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم الخالية، وأخبرهم بذلك في قوله ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾[(٢)] الآية، فمعلوم بذلك أن بني اسرائيل في عصر نبينا لم يكونوا مع تكذيبهم به ﷺ أفضل العالمين، بل كان أفضل العالمين في ذلك العصر وبعده إلى قيام الساعة المؤمنون به المتبعون منهاجه دون من سواهم من الأمم المكذبة الضالة عن منهاجه .

وأما تأويل ذلك في قراءة من قرأ : ﴿ مالك يوم الدين ﴾[(٣)] فإنه أراد : يا مالك يوم الدين ، فنصبه بنية النداء والدعاء ، كما قال جل ثناؤه :

---

(١) سورة الجاثية :الآية ١٦ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٣) انظر : الطبري : ١ / ٥١ .

﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾[١] بتأويل يايوسف أعرض عن هذا .

القول في تأويل قوله[٢] ﴿ يوم الدين ﴾ والدين في هذا الموضع بتأويل الحساب والمجازاة بالأعمال، ومن ذلك قول الله جل ثناؤه ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾[٣] يعني بالجزاء ﴿ وان عليكم لحافظين ﴾[٤] يحصون ما تعلمون من الأعمال . وقوله تعالى ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾[٥] يعني غير مجزيين بأعمالكم ولا محاسبين .

وللدين معان في كلام العرب غير معنى الحساب والجزاء سنذكرها في أماكنها ان شاء الله .

وبما قلنا في تأويل قوله ﴿ يوم الدين ﴾ جاءت الآثار عن السلف عن المفسرين بذلك عن عبدالله بن عباس ﴿ يوم الدين ﴾ قال : يوم حساب الخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه، فالأمر أمره . ثم قال ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[٦] .

عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿ ملك يوم الدين ﴾ هو يوم الحساب .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٢٩ .

(٢) الطبري : ١ / ٥٢ - ٥٣ .

(٣) سورة الانفطار : الآية ٩ .

(٤) سورة الانفطار : الآية ١٠ .

(٥) سورة الواقعة : الآية ٨٦ .

(٦) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

عن قتادة في قوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال : يوم يدين الله العباد بأعمالهم .

عن ابن جريج ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال : يوم يدان الناس بالحساب .

القول في تأويل قوله ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين[١] ﴾ فتأويل قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ : لك اللهم نخشع، ونذل ونستكين، اقرارا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك .

عن عبد الله بن عباس قال : قال جبريل لمحمد ﷺ : قل يا محمد : إياك نعبد، وإياك نوحد ونخاف، ونرجو يا ربنا لا غيرك، وذلك من قول ابن عباس[٢] بمعنى ما قلنا، وإنما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نخشع، ونذل، ونستكين دون البيان عنه، بأنه بمعنى نرجو، ونخاف، وان كان الرجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة، وأنها تسمى الطريق المذلل الذي قد وطئته الأقدام وذللته السابلة معبدا ومن ذلك قول طرفة بن العبد .

تبارى عناقا ناجيات وأتبعت ... وظيفا وظيفا فوق مور معبد[٣]

يعني بالمور : الطريق، وبالعبد المذلل الموطوء .

---

(١) الطبري : ١ / ٥٣ ومابعدها .

(٢) انظر : الدر المنثور : ١ / ١٤ .

(٣) الطبري : ١ / ٥٣ ذكر الشعر .

القـول في تـأويل قـوله : ﴿ وإياك نسـتـعين ﴾ ومـعنـى قـولـه ﴿ وإياك نستعين ﴾ : وإيـاك ربنا نستعين على عبـاتنا إياك وطاعتنـا لك، وفي أمورنا كلهـا لا أحداً سـواك، إذ كـان من يكفـر بك يسـتعين في أموره معبـوده الذي يعبـده مـن الأوثان دونك ونحن بك نستعين في جميع أمورنامخلصين لك العبادة .

عن عـبدالله بن عبـاس ﴿ وإياك نسـتعين ﴾ قال : إياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها[١] .

فإن قال قائل : وما معنى أمر الله عباده بأن يسألوه المعونة على طاعته أو جائز وقد أمرهم بطاعته أن لا يعنيهم عليها ؟ .

أم هل يقول قائل لربه : إياك نستعين على طاعتك، إلا وهو على قوله ذلك معان وذلك هو الطاعة ؟ فما وجه مسئلة العبد ربه ما قد أعطاه أياه ؟ قيل إن تأويل ذلك على غيرالوجه الذي ذهبت إليه، وإنما الداعي ربه من المؤمنين أن يعينه على طاعته إياه داع أن يعينه فيما بقي من عمره على ما كلفه من طاعته، دون ما قد تقضى ومضى من أعماله اصالحة فيما خلا من عمره .

وجازت مسألة العبد ربه ذلك، لأن اعطاء الله عبده ذلك مع تمكينه جوارحه لأداء ما كلفه من طاعته وافترض عليه من فرائضه فضل منه جل ثناؤه تفضل به عليه، ولطف منه لطف له فيه وليس في تركه التفضل على

---

(١) الدر المنثور : ١ / ١٤ وانظر : الطبري : ١ / ٥٣ .

بعض عبيده بالتوفيق مع اشتغال عبده بمعصيته وانصرافه عن محبته، ولا في بسطه فضله على بعضهم مع اجهاد العبد نفسه في محبته ومسارعته إلى طاعته فساد في تدبير ولا جور في حكم . فيجوز أن يجهل جاهل موضع حكم الله، وأمره عبده بمسألته عونه على طاعته . وفي أمر الله جل ثناوه عباده أن يقولوا ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ بمعنى مسألتهم اياه المعونة على العبادة أدل الدليل على فساد قول القائلين بالتفويض من أهل القدر الذين أحالوا أن يأمر الله أحدا من عبيده بأمر أو يكلفه فرض عمل إلا بعد اعطائه المعونة على فعله وعلى تركه .

ـ القول في تأويل قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [١] .

عن عبدالله بن عباس قال : قال جبريل لمحمد : « قل يا محمد ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ » : يقول ألهمنا الطريق الهادي والهامه إياه ذلك هو توفيقه له كالذي قلنا في تأويله، ومعناه نظير معنى قوله ﴿ إياك نستعين ﴾ في أنه مسألة العبد ربه التوفيق للثبات على العمل بطاعته، وإصابة الحق والصواب فيما أمره ربه ونهاه عنه فيما يستقبل من عمره دون ما قد مضى من أعماله وتقضي فيما سلف من عمره كما في قوله ﴿ إياك نستعين ﴾ مسألة منه ربه المعونة على أداء ما قد كلفه من طاعته فيما بقى من عمره فكان معنى الكلام : اللهم إياك نعبد وحدك لا شريك لك، مخلصين لك العبادة دون ما سواك من الالهة والأوثان فاعنا على عبادتك، ووفقنا لما وفقت له من أنعمت عليه من أنبيائك وأهل طاعتك من السبيل والمنهاج .

---

(١) الطبري : ١ / ٥٥ .

القول في تأويل قوله ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾[١] .

وقوله : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ إبانة عن الصراط المستقيم أي الصراط هو اذ كان كل طريق من طرق الحق صراطا مستقيما، فقيل لمحمد ﷺ : قل يا محمد : اهدنا يا ربنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، بطاعتك وعبادتك من ملائكتك، وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين،وذلك نظير ما قال ربنا جل ثناؤه في تنزيله ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ،وإذا لاتيناهم من لدنا أجرنا عظيما ولهدينا هم صراطا مستقيما ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾[٢] .

وقال أبو جعفر : فالذي أمر محمد ﷺ وأمته أن يسألوه ربهم من الهداية للطريق المستقيم هي الهداية للطريق الذي وصف الله جل ثناؤه صفته، وذلك الطريق هو طريق الذي وصفهم الله بما وصفهم به في تنزيله ووعد من سلكه فاستقام فيه طائعا لله ولرسوله ﷺ أن يورده مواردهم، والله لا يخلف الميعاد، وبنحو ما قلنا في ذلك روى الخبر عن ابن عباس وغيره .

فعن ابن عباس : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ يقول : طريق من أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من الملائكة والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين أطاعرك وعبدوك .

---

(١) الطبري : ١ / ٥٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ٦٦ ـ ٦٩ .

قال أبو جعفر : وفي هذه الآية دليل واضح على أن طاعة الله جل ثناؤه لا ينالها المطيعون إلا بانعام الله بها عليهم وتوفيقه إياهم لها . أو لا يسمعونه يقول ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فأضاف كل ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه انعام منه عليهم ؟

فقوله ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ من ذلك لأن أمر الله جل ثناؤه عبادة بمسألته المعونة، وطلبهم منه الهداية للصراط المستقيم لما كان متقدما قوله ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ الذي هو إبانة عن الصراط المستقيم وإبدال منه كان معلومًا أن النعمة التي أنعم الله بها على من أمرنا بمسألته الهداية لطريقهم هو المنهاج القويم، والصراط المستقيم الذي قد قدمنا البيان عن تأويله آنفا .

القول في تأويل قوله ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾[1] .

إن من أنعم الله عليه فهداه لدينه الحق فقد سلم من غضب ربه، ونجا من الضلال في دينه، فسواء إذ كان سامعًا قوله ﴿ إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ غير جائز أن يرتاب مع سماعه ذلك من تاليه، في أن الذين أنعم الله عليهم بالهداية للصراط، غير غاضب ربهم عليهم مع النعمة التي قد عظمت منته بها عليهم في دينهم، ولا أن يكونوا ضلالا وقد هداهم للحق ربهم إذ كان مستحيلا في فطرهم اجتماع الرضا من الله جل ثناؤه عن شخص، والغضب عليه في حال واحدة، واجتماع

---

(١) الطبري : ١ / ٥٩ - ٦٠ .

الهدى والضلال له في وقت واحد، وصف القوم مع وصف الله إياهم بما وصفهم به من توفيقه اياهم وهدايته لهم وانعامه عليهم بما أنعم الله به عليهم في دينهم بأنهم غير مغضوب عليهم ولا هم ضالون أم لم يوصفوا بذلك لأن الصفة الظاهرة التي وصفوا بها، قد أنبأت عنهم أنهم كذلك، وأن لم يصرح وصفهم به .

والصواب[1] من القول في تأويله وقراءته عندنا القول الأول، وهو قراءة ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ بخفض الراء من (غير) بتأويل أنها صفة للذين أنعمت عليهم، ونعت لهم لما قد قدمنا من البيان ان شئت وان شئت فبتأويل تكرير (صراط)، كل ذلك صواب حسن .

فإن قال لنا قائل : فمن هؤلاء المغضوب عليهم الذين أمرنا الله جل ثناؤه بمسألته أن لا يجعلنا منهم ؟

قيل هم الذين وصفهم الله جل ثناؤه في تنزيله فقال ﴿ قل هل أنبكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ﴾[2] فأعلمنا جل ذكره بمنه ما أحل بهم من عقوبته بمعصيتهم إياه ثم علمنا منه منة علينا وجه السبيل الى النجاة، من أن يحل بنا مثل الذي حل بهم من المثلات ورأفة منه بنا .

---

(١) الطبري : ١ / ٦١ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٠ .

فإن قال : وما الدليل على أنهم أولاء الذين وصفهم الله وذكر نبأهم في تنزيله على ما وصفت ؟

قيل ما صح عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ المغضوب عليهم اليهود .

قال أبو جعفر[١] واختلف في صفة الغضب من الله جل ذكره، فقال بعضهم غضب الله على من غضب عليه من خلقه احلال عقوبته بمن غضب عليه، إما في دنياه، وإما في آخرته، كما وصف به نفسه جل ذكره في كتابه فقال : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾[٢] وكما قال ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير ﴾[٣] .

وقال بعضهم : غضب الله على من غضب عليه من عباده ذم منه لهم ولأفعالهم، وشتم منه لهم بالقول .

وقال بعضهم الغضب منه معنى مفهوم، كالذي يعرف من معاني الغضب، غير أنه وان كان كذلك من جهة الاثبات، فمخالف معناه منه معنى ما يكون من غضب الآدميين الذين يزعجهم ويحركهم ويشق عليهم ويوذيهم، لأن الله جل ثناؤه، لا تحل ذاته الآفات ولكنه له صفة كما العلم له

---

(١) الطبري : ١ / ٦٢ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٥٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦٠ .

صفة، والقدرة له صفة على ما يعقل من جهة الاثبات، وان خالفت معاني ذلك معاني علوم العباد التي هي معارف القلوب وقواهم، التي توجد مع وجود الأفعال وتعدم مع عدمها . هكذا حكى ابن جرير عنهم ذلك .

القول في تأويل قوله ﴿ ولا الضالين ﴾[١] فتأويل الكلام إذاً إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، لا المغضوب عليهم ولا الضالين .

فإن قال لنا قائل[٢] : ومن هؤلاء الضالون الذين أمرنا الله بالاستعاذة بالله أن يسلك بنا سبيلهم أونضل ضلالهم ؟

قيل : هم الذين وصفهم الله في تنزيله فقال ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾[٣] .

فإن قال : وما برهانك على أنهم أولاء ؟

قيل ما ثبت عن عدى بن حاتم، قال قال رسول الله ﷺ « ولا الضالين » قال : النصارى .

قال أبو جعفر[٤] : وكل حائد عن قصد السبيل، وسالك غير المنهج

---

(١) الطبرى : ١ / ٦٢ .

(٢) المرجع السابق : ١ / ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٧٧ .

(٤) الطبري : ١/ ٦٤ .

القويم، فضال عند العرب لإ ضلاله وجه الطريق، فلذلك سمى الله جل ذكره النصارى ضلالا لخطئهم في الحق منهج السبيل وأخذهم من الدين في غير الطريق المستقيم .

فإن قال قائل : أو ليس ذلك أيضًا من صفة اليهود ؟

قيل بلى .

فإن قال : كيف خص النصاري بهذه الصفة وخص اليهود بما وصفهم به من أنهم مغضوب عليهم؟

قيل إن كلا الفريقين ضلال مغضوب عليهم غير أن الله جل ثناؤه وسم كل فريق منهم من صفته لعباده بما يعرفونه به إذا ذكره لهم أو أخبرهم عنه، ولم يسم واحداً من الفريقين إلا بما هو له صفة على حقيقته وإن كان له من صفات الذم زيادات عليه .

وقد ظن بعض أهل الغباء من القدرية أن في وصف الله جل ثناؤه، النصارى بالضلال بقوله ﴿ ولا الضالين ﴾ وأضافته الضلال اليهم دون اضافة اضلالهم إلى نفسه وتركه وصفهم بأنهم المضللون كالذي وصف به اليهود أنهم المغضوب عليهم دلالة على صحة ما قاله إخوانه من جهلة القدرية، جهلاً منه بسعة كلام العرب، وتصاريف وجوهه، ولو كان الأمرعلى ما ظنه الغبي الذي وصفنا شأنه، لوجب أن يكون شأن كل موصوف بصفة أو مضاف إليه فعل لا يجوز أن يكون فيه سبب لغيره وأن يكون كل ما كان فيه من ذلك لغيره سبب، فالحق فيه أن يكون مضافًا إلى مسببه، ولو وجب ذلك لوجب أن يكون خطأ قول القائل : تحركت الشجرة

إذا حركتها الرياح، واضطربت الأرض إذا حركتها الزلزلة وما أشبه ذلك، ومن الكلام الذي يطول باحصائه الكتاب .

وفي قول الله جل ثناؤه ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾[(١)] باضافته الجري الى الفلك وإن كان جربها باجراء غيرها إياها، ما يدل على خطأ التأويل الذي تأوله من وصفنا قوله في قوله ﴿ ولا الضالين ﴾ وادعائه أن في نسبة الله جل ثناؤه الضلالة الى من نسبها اليه من النصارى تصحيحا لما ادعى المنكرون ان يكون لله جل ثناؤه في افعال خلقه سبب من أجله وجدت أفعالهم، مع ابانة الله عز ذكره نصا في آي كثيرة من تنزيله أنه المضل الهادي فمن ذلك قوله جل ثناؤه ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾[(٢)] فأنبأ جل ذكره أنه المضل الهادي دون غيره ولكن القرآن نزل بلسان العرب، على ما قد قدمنا البيان عنه في أول الكتاب، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وجد منه وان كان مسببه غير الذي وجد منه احيانا وأحيانا إلى مسببه وان كان الذي وجد منه الفعل غيره فكيف بالفعل الذي يكتسبه ا لعبد كسبا، ويوجده الله جل ثناؤه عينا منشأة بل ذلك أحرى أن يضاف إلى مكتسبه كسبا له بالقوة منه عليه والاختيار منه له، وإلى الله جل ثناؤه باجياد عينه وانشائها تدبيراً .

انتهى كلام ابن جرير والله أعلم .

---

(١) سورة يونس : الآية ٢٢ .

(٢) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

سورة الفاتحة

يقال لها : الفاتحة وبها تفتح القراءة في الصلوات ويقال لها أم الكتاب عند الجمهور وقد ثبت عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال : رسول الله ﷺ : « الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم »[١] .

ويقال لها (الحمد) .

ويقال لها (الصلاة) لقوله ﷺ عن ربه : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدني عبدي»[٢] .

وهي مكية ، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية وهي سبع آيات بلا خلاف[٣] وكلماتها خمس وعشرون كلمة وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفا[٤] .

---

(١) تقديم تخريجه ، وانظر : الطبري : ١ / ٣٦ .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أي بعدد السور التي فيها البسملة ، وانظر : تفسير النيسابوري : ١ / ٧٢ ، قال : « وخطؤا مجاهداً بقوله : إنها مدنية » .

(٤) ذكر ذلك ابن كثير : ١ / ٨ .

فضل الفاتحة

روى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال : كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صلبت ، قال : فأتيته فقال : « مامنعك ان تأتيني ؟ قال : قلت : يا رسول الله اني كنت أصلي ، قال ألم يقل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[(١)] ثم قال : لأعلمنك اعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، قال : فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قال : نعم ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » وهكذا رواه البخاري عن مسدد[(٢)] .

(١) سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

(٢) فتح الباري : ٨/ ٣٠٧ ، ٣٨١ ، ومسند أحمد : ٣/ ٤٥٠ ، وصحيح ابن خزيمة رقم ٥٨٦٢ ، ٢/ ٣٨ .

الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه

أحدهما : أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة ، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾[١] ، أي بقراءتك كما جاء مصرحا به في الصحيح عن ابن عباس ، وهكذا قال في هذا الحديث : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ماسأل » ، ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة في الصلاة وأنها من أكبر أركانها اذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله : ﴿ وقرآن الفجر ، ان قرآن الفجر كان مشهودا ﴾[٢] .

والمراد : صلاة الفجر كما جاء مصرحًا به في الصحيحين : « أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكه النهار »[٣] فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة وهو اتفاق من العلماء .

ولكن اختلفوا هل يتعين للقراءة في الصلاة غير فاتحة الكتاب أم تجزئ هي أو غيرها؟ على قولين مشهورين .

فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم ، أنها لا تعين بل مهما قرأ به من القرآن أجزاه في الصلاة .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١١٠ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٧٨ .

(٣) الدر المنثور : ٤ / ١٩٦ .

واحتجوا بعموم قوله تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾[١] وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة المسيء في صلاته أن رسول الله ﷺ قال له : إذا « قمت إلى الصلاة فكبر ثم أقرأ ما تيسر معك من القرآن »[٢] ، قالوا فأمره بقراءة ما تيسر ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها .

القول الثاني : أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ولا تجزيء الصلاة بدونها .

وهو قول بقية الأئمة : مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأصحابهم، وجمهور العلماء .

واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج »[٣] .

والخداج : هو الناقص كما فسر به في الحديث (غير تمام) واحتجوا ايضا بما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[٤] .

---

(١) سورة المزمل : الآية ٢٠ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب القراءة في الظهر والعصر جـ ٢ / ٣٧ والبخاري في صحيحه ، كتاب صفة الصلاة ، باب القراءة في الظهر والعصر ١ / ٢٦٤ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة جـ ١ / ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأذان ، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم جـ ١ / ١٩٢ ،

وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجزىء صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن »[١] .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة . ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها في كل ركعة .

وقد روى ابن ماجه[٢] من حديث أبي سفيان السعدي عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعا : « لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها » ، وفي صحة هذا نظر .

والوجه الثالث : هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

أحدها : أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة .

الثاني لا تجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولا غيرها لا في صلاة الجهرية ولا في صلاة السريه لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان له امام فقراءة الإمام له قراءة »[٣] ، ولكن في إسناده ضعف .

---

(١) ابن خزيمة رقم (٤٩٠) ، ١ / ٢٤٨ ، فتح البارى : ٢ / ٢٤١ .

(٢) ابن ماجه رقم ٨٢٣ ، ١ / ١٥٠ في مجمع الزوائد إسناده ضعيف ، وانظر : أبو داود ٨١٨ ، ٨٢٠ ، ١ / ٢١٦ .

(٣) مسند أحمد : ٣ / ٣٣٩ ، الدر المنثور : ٣ / ١٥٦ ، تفسير القرطبي : ١ / ١١٨ ، سنن البيهقى : ٢ / ١٦٠ - ١٦١ .

والقول الثالث : انه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم، ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا »(١) ، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول .

قلت ويقرأ المأموم الفاتحة في سكتات الإمام، كما هو مذهب إمامنا الإمام أحمد .

وسنذكر في احكام القرآن في آخر هذه السورة مذهب امام أهل السنة أحمد بن حنبل .

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شيء إلا الموت »(٢)، انتهى .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب كتاب الصلاة ، باب أتمام المأموم بالإمام جـ ٢ / ١٨ . وأخرجه البخاري في صحيحه . كتاب الجماعة والإمام ، باب إنما جعل الإمام ليؤتم مبه جـ ١ / ٢٤٤ ، حديث رقم ٦٥٦ .

(٢) الدر المنثور : ١ / ٥ ، الترغيب والترهيب : ١ / ٤١٦ ، مجمع الزوائد : ١ / ١٢١ ، كشف الخفاء : ٢ / ١٠٧ وهو ضعيف .

وقال أبو الفداء إسماعيل بن كثير الشافعي (٧٠٠ - ٧٧٤) رحمه الله في تفسيره :

تفسير الاستعاذة واحكامها

قال الله تعالى : ﴿ واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾[٢] .

وبعد قوله : ﴿ نحن أعلم بما يصفون ﴾ في سورة قد أفلح المؤمنون قال تعالى : ﴿ واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾[٣] .

وقال تعالي بعد قوله : ﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ في سورة حم السجدة : ﴿ واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾[٤] .

فهذه ثلاث آئات ليس لهن رابعة في معناها وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الانسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل . الى

---

(١) سورة فصلت : الآية ٣٦ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٣٦ .

(٤) سورة فصلت : الآية ٣٦ .

الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه من قبل كما قال تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يفتتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[2] .

وقال : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾[3] .

وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام انه له لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم اجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾[5] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٧.

(٢) سورة فاطر : الآية ٦ .

(٣) سورة فاطر : الآية ٥٠ .

(٤) سورة ص : الآية ٨٢ ، ٨٣ .

(٥) سورة النحل : الآيات ٩٨ ـ ١٠٠ .

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها .

ومعنى الآية عندهم : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾[١] ، اي إذا أردت القراءة كقوله تعالى : ﴿ إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ... ﴾[٢] الآية .

أي إذا أردتم القيام .

والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك روى ا لإمام أحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستتفح صلاته وكبر قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » ، ثم يقول : « لا إله إلا الله ثلاثا » ، ثم يقول أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه »[٣] .

وقد رواه أهل السنن الأربعة[٤] ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطييب له وهو لتلاوة كلام الله وهي

---

(١) سورة النحل : الآية ٨٠ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦ .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده : ٣ / ٥٠ .

(٤) الترمذي ٢٢٤٢ و ٢٢٤٣ . ٩ - ١١ ، أبو داود ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ١ / ٢٠٦ ، مسند أحمد ٣ / ٥٠ ، ٦٩ ، ابن خزيمة ٤٧٠ ، ١ / ٢٣٩ .

استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه الا الله الذي خلقه ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الانسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني .

وقال تعالى : ﴿ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفي بربك وكيلا ﴾[١] ، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري[٢] .

فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيدا .

ومن قتله العدو الباطني كان طريدا .

ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورا .

ومن قهره العدو الباطني كان مفتونا أو موزورا .

ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان .

والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر .

والعياذة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير .

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي استجير بجناب الله من

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٦٥ .

(٢) بقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ .

الشيطان الرجيم ان لا يضرني في ديني أو دنياي عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان الا الله ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الانس ومداراته باسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى[١] وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه في ثلاث آيات من القرآن في سورة الأعراف ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان فاستعذ بالله إنه هو سميع عليم ﴾[٢] .

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾[٣] .

وقال تعالى في سورة فصلت : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله أنه هو السميع العليم ﴾[٤] .

والرجيم فعيل بمعنى مفعول أي انه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾[٥] .

(١) في غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٠٠ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) سورة فصلت : الآية ٣٦ .

(٥) سورة الملك : الآية ٥ .

وقال تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين ﴾(٢) الى غير ذلك من الآيات .

وقيل : رجيم بمعنى راجم الناس بالوساوس والأول أشهر وأصح .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾(٣) افتتح بها الصحابة كتاب الله واتفق العلماء على أنها بعض أية من سورة النمل(٤) .

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتي ينزل عليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾(٥) .

وممن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي .

---

(١) سرة الصافات : الآية ٦ ـ ١٠ .

(٢) سرة الحجر : الآية ١٦ ـ ١٨ .

(٣) انظر لهذا الكلام تفسير ابن كثير : ١ / ١٦ - ١٧ باختصار .

(٤) الحصكفي الدر المختار : ١ / ٣٣٠ إجماعًا ، ابن مفلح ، الفروع : ١ / ٤١٣ .

(٥) أبو داود ٧٨٨ ، ١ / ٢٠٩ ، وسنن البيهقي : ٢ / ٤٢ ، مشكاة المصابيح ٣٢١٨ ، فتح الباري ٩: / ٤٢ .

وبه يقول الشافعي وأحمد بن حنبل في رواية عنه .

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور[١] .

وقيل : هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها وهذا رواية عن الإمام أحمد بن حنبل[٢] .

فأمر الجهر[٣] بها ففرع على هذا ، فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها وكذا من قال انها آية في أولها وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا .

فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة التابعين وأئمة المسلمين سلفا وخلفا فجهر بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمرو ابن عباس ومعاوية .

والحجة في ذلك انها بعض الفاتحة فيجهر بها كسائر ابعاضها .

وذهب آخرون أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف وهو

---

(١) الحصكفي ، الدر المختار ، وابن عابدين رد المحتار ١ / ٣٢٩ أكثر المشائخ على أن البسملة آية من الفاتحة . والشافعي ، الأم ١ / ١٢٩ ، البسملة الآية السابعة ، مالك ، المدونة ١ / ٦٨ لايقرأ مالك سراً ولاجهراً ، المقدمات لابن رشد ١ / ٨٥ السنة تركها ، ابن مفلح ، الفروع ١ / ٤١٣ وليست من الفاتحة على الأصح .

(٢) د/ حكمت بشير ياسين ، مرويات الإمام أحمد في التفسير : ١ / ٣٠ .

(٣) انظر للجهر بها مراجع المذاهب السابقة .

مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل .

وعند الإمام مالك أنه لا يقرأن البسملة بالكلية لا جهرا ولا سرا واحتجوا بما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين[١] .

وبما في الصحيحن عن أنس بن مالك قال صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين[٢] .

ولمسلم لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها[٣] ونحوه في السنن عن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه فهذه مآخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة وهي قريبة لكنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر ولله الحمد والمنة[٤] .

وقوله (الله) علم على الرب تبارك وتعالى يقال انه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦ / ٣١ ، ١٩٤ ، أبو داود ٧٨٣ ، ١ / ٢٠٨ .

(٢) فتح الباري : ٢ / ٢٢٧ ، مسند أحمد ٣ / ١٠١ ، ١١٤ .

(٣) مسند أحمد ٣ / ١٧٩ ، ٢٧٥ .

(٤) إلى هنا ينتهي النقل من تفسير ابن كثير .

السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[١] ، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[٣] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ان لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدا من احصاها دخل الجنة »[٤] ، وجاء تعدادها في رواية الترمذي وابن ماجة[٥] ، وبين الروايتين اختلاف زيادة ونقصان .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ : اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾[٦] ، القراءة السبعة على ضم الدال في قوله الحمد لله هو مبتدأ وخبر، اختلفوا أيهما أعم الحمد أو الشكر على قولين :

والتحقيق أن بينهما عموما وخصوصا، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية ، تقول

---

(١) سورة الحشر : الآية ٢٢ ـ ٢٤ .

(٢) سررة الأعراف : الآية ١٨٠ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ١١٠ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٩٧ ، كتاب التوحيد(١٢) ، باب : إن لله مائة اسم الا واحد جـ٨/ ١٦٩ ، ومسلم ، الذكر والدعاء (٦) ٤/ ٢٠٦٣ ، الترمذي ٣٥٠٦ ، ٥/ ٥٣٠ .

(٥) ابن ماجه رقم ٣٩٠٦ ، ٣٩٠٧ .

(٦) تقدم الكلام عن كل هذا في موضعه .

حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه، لأنه يكون بالقول والفعل والنية، كما تقدم وهو أخص، لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية لا يقال شكرته لفروسيته وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إليَّ .

(ذكر أقوال السلف فى الحمد)

الألف واللام في الحمد : لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، كما جاء في الحديث : « اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله »[١] .

و(الرب) : هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى ولا يستعمل الرب لغير الله إلا بالاضافة، تقول : رب الدار ، رب كذا .

وأما الرب فلا يقال الا لله عز وجل .

وقد قيل : إنه الاسم الأعظم .

والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل .

والعالم : جمع لا واحد له من لفظه .

والعوالم : أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر وكل قرن منها وجيل يسمى عالما أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن الاعادة ﴿ ملك يوم الدين ﴾ ، وقرأ آخرون : ﴿ مالك ﴾ وكلاهما صحيح متواتر في السبع .

(١) مسند أحمد ٥ / ٣٩٦ .

ورجح الزمخشري : ﴿ مَلِكِ ﴾ لأنها قراءة أهل الحرمين، ولقوله : ﴿لمن الملك اليوم ﴾ ﴿ قوله الحق وله الملك ﴾ ، وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لأنه تقدم الأخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما اضيف إلى يوم الدين، لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئا ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ [١] .

وقال تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس الا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾[٣] .

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿ مالك يوم الدين ﴾ يقول لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكما كملكهم في الدنيا ، قال : (يوم الدين) يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه[٤] ، والملك في الحقيقة هو الله عز وجل قال الله : ﴿ هو

(١) سورة النبأ : الآية ٣٨ .

(٢) سورة طه : الآية ١٠٨ .

(٣) سورة هود : الآية ١٠٥ .

(٤) من هنا يبدأ النقل عن ابن كثير : ١ / ٢٥ .

الله الذي لا إله الا هو الملك القدوس السلام ﴾[١] »[٢].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : « اخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك الا الله »[٣] .

وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال : «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ اين المتكبرون ؟ »[٤] .

وفي القرآن العظيم : ﴿ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾[٥] .

فأما تسمية غيره في الدنيا بملك، فعلى سبيل المجاز، كما قال تعالى : ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ﴾[٦] ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾[٧] ﴿ إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ﴾[٨] .

وفي الصحيحين : « مثل الملوك على الأسرة »[٩] .

---

(١) سورة الحشر : الآية ٢٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب المقدمة ،باب فيما انكرت الجهمية ١ /٦٨، ٦٩ حديث رقم ١٩٢ ، وأخرجه البخاري في صحيحه ، باب قول الله تعالي : « ملك الناس » الناس / ٢ جـ ٦ /٢٦٨٨ ، حديث رقم ٦٩٧٧ .

(٣) مسند أحمد ٢ / ٢٤٤ ، الترمذي ٢٨٣٧ ، ٥ / ١٣٤ وقال حسن صحيح .

(٤) البخاري ٧ / ١٩٣ ، ٨ / ١٦٦ ، ومسلم ، صفات المنافقين ٢٣ ، ٤ / ٢١٤٨ .

(٥) سورة غافر : الآية ١٦ .

(٦) سورة البقرة : الآية ٢٤٧ .

(٧) سورة الكهف : الآية ٧٩ .

(٨) سورة المائدة : الآية ٢٠ .

(٩) البخاري ، تعبير ١٢ ، ٨ / ٧٣ ، جهاد ٣ / ٢٠١ ، مسلم ، إمارة ١٦٠ ، ١٦١ ، ٤ / ١٥١٨ - ١٥١٩ ، مسند أحمد ٣ / ٢٤٠ - ٢٦٤ .

و(الدين) : الجزاء والحساب، كما قال تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾[١] .

وقال : ﴿ أئنا لمدينون ﴾[٢] ، أي مجزيون محاسبون .

وفي الحديث : « الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت »[٣] ، أي حاسب نفسه، كما قال عمر رضي الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[٤] »[٥]

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ : قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من إياك .

و(نستعين) بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع .

والعبادة في اللغة : من الذلة، يقال طريق معبد وبعير معبد، أي مذلل.

وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف .

وقدم المفعول وهو (إياك) وكرر للاهتمام والحصر، أي لا نعبد إلا إياك

---

(١) سورة النور : الية ٢٥ .

(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٤٤ ، الترمذي ٢٨٣٧، ٥ / ١٣٤ وقال حسن صحيح .

(٣) مسند أحمد ٤ / ٢٤ ، سنن البيهقي ٣ / ٣٦٩ .

(٤) سورة الحاقة : الآية ١٨ .

(٥) هنا انتهي النقل عن ابن كثير ونقل قول عمر .

ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة ، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين .

وهذا كما قال بعض السلف الفاتحة سر القرآن ، وسرها هذه الكلمة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

فالأول تبرؤ من الشرك .

والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل .

وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى : ﴿ فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(١) ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾(٢) ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾(٣) ، وكذلك هذه الآية الكريمة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبة لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى وارشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك .

والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى

---

(١) سورة هود : الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الملك : الآية ٢٩ .

(٣) سورة المزمل : الآية ٩ .

وقد سمى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾[١] ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾[٢] ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ﴾[٣] فسماه عبدا عند انزاله عليه وعند قيامه في الدعوة واسرائه به وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[٤].

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ قراء الجمهور بالصاد[٥] لما تقدم الثناء على المسئول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال : « فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل » .

وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله ثم يسأله حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ ، لأنه أنجح للحاجة وأنجح للاجابة .

ولهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال

---

(١) سورة الكهف : الآية ١

(٢) سوة الجن : الآية ١٩ .

(٣) سررة الإسراء : الآية ١ .

(٤) سورة الحجرات : الآية ٩٧ ـ ٩٩ .

(٥) ابن كثير : ١ / ٢٦ .

السائل واحتياجه كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رب إني لما أنزلت الى من خير فقير ﴾ [١] .

وقد يتقدمه مع ذلك وصف مسئول كقول ذي النون : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين ﴾ [٢].

والهداية ههنا الإرشاد والتوفيق .

وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ، فتضمن معنى الهمنا أو وفقنا أو أرزقنا أو أعطنا ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [٣] أي بينا له الخير والشر ، وقد تعدى بالى كقوله تعالى : ﴿ اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ [٤] ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ [٥] ، وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة ، وكذلك قوله : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [٦] .

وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ [٧] ، أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا .

---

(١) سورة القصص : الآية ٢٤ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٨٧ .

(٣) سورة البلد : الآية ١٠ .

(٤) سورة النحل : الآية ١٢١ .

(٥) سورة الصافات : الآية ٢٣ .

(٦) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

(٧) سورة الأعراف : الآية ٤٣ .

وأما الصراط المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن جرير[١] : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه وذلك في لغة جميع العرب .

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط وان كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد وهو المتابعة لله وللرسول ﴿ صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾[٢] .

وقد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد إهدنا الصراط المستقيم إلى آخرها أن الله يقول « هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » .

وقوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) مفسر للصراط المستقيم وهو بدل منه عند النحاة ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم .

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[٣] .

وقال الضحاك عن ابن عباس صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين وذلك

---

(١) تفسير الطبري : ١ / ٥٧ ذكر الإجماع .

(٢) ابن كثير : ١ / ٢٦ .

(٣) سورة النساء : الآية ٦٩ ، ٧٠ .

نظير ما قال ربنا تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم [١] ... ﴾ الاية [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، قرأ الجمهور غير بالجر على ا لنعت .

قال الزمخشري : وقرىء بالنصب على الحال وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب . ورويت عن ابن كثير .

وذو الحال الضمير في عليهم، والعامل أنعمت والمعنى ﴿ إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم ﴾ ممن تقدم وصفهم ونعتهم وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت ارادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى [٣] .

---

(١) ابن كثير : ١ / ٢٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ٦٩ .

(٣) ابن كثير : ١ / ٢٨ ، ٢٩ .

(مسألة)

والصحيح من مذهب العلماء أنه يغتفر الاخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة ا للسان وما يليها من الأضراس ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة فلهذا كله اغتفر استعمال احدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم .

وأما حديث أنا أفصح من نطق بالضاد فلا أصل له والله أعلم (١) .

(١) ابن كثير : ١ / ٣٠ .

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر اسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرىء من حولهم وقوتهم الى اخلاص العبادة له وتوحيده بالالوهية تبارك وتعالى وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه والهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه حتى يقضي لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسيه يوم القيامة المضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين واشتملت على ا لترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون .

وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ﴾ ، وحذف الفاعل في المغضوب في قوله تعالى ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ ، وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة ؛ كما قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم... ﴾ الآية [١] ، وكذلك اسناد الضلال إلى من قام به وان كان هو الذي أضلهم بقدرهُ كما قال تعالى : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ [٢] .

---

(١) سورة المجادلة : الآية ١٤ .

(٢) سورة الكهف : ا لآية ١٧ .

وقـــال ﴿ من يضلل الله فـــلا هادي له ويذرهم في طغـــيـــانهم يعمهون ﴾[١] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والاضلال [٢] .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٨٦ .

(٢) ابن كثير : ١ / ٣٠ .

فصل[١]

يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين ومعناه اللهم استجب .

والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال سمعت النبي ﷺ قرأ ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فقال آمين مد بها صوته .

ولأبي داود رفع بها صوته .

وقال الترمذي هذا حديث حسن .

وروى عن علي وابن مسعود وغيرهما .

وعن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا تلا ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، قال : (آمين) حتى يسمع من يليه من الصف الأول[٢] ، رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه (فيرتج بها المسجد) والدارقطني وقال : هذا إسناد حسن[٣] .

وعن بلال أنه قال : يا رسول الله لا تسبقني بآمين رواه أبو داود .

---

(١) انظر لذلك ابن كثير : ١ / ٣١ .

(٢) أبو داود ، استفتاح ، الصلاة ب ٥٧ ، ابن كثير : ١ / ٤٨ .

(٣) أبو داود ، استفتاح ، الصلاة ب ٥٧ ، والدارمي ١ / ٢٨٤ ، وإتحاف السادة ٣ / ١٨٢ ، تفسير القرطبي ١ / ١٢٩ .

فوائد

الفائدة الأولى : لم يذكر تعالى لحمده هنا ظرفا مكانيا ولا زمانيا وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية : السماوات والأرض في قوله : ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ... ﴾ الآية[١] .

وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية : الدنيا والآخرة في قوله ﴿ وهو الله لا إله الا هو له الحمد في الأولي والأخرة ... ﴾ الآية[٢] .

وقال في أول سورة سبأ : ﴿ وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾[٣] .

الفائدة الثانية : قوله تعالى : ﴿ رب العالمين ﴾ لم يبين هنا ما العالمون ، وبين ذلك في مواضع آخر بقوله : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما ... ﴾ الآية[٤] .

قال بعض العلماء : اشتقاق العالم من العلامة ، لأن وجود العالم علامة لا شك فيها على وجود خالقه متصفا بصفات الكمال والجلال قال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾[٥] .

---

(١) سورة الروم ، الآية ١٨ .

(٢) سورة القصص : الآية ٧٠ .

(٣) سورة سبأ : الآية ١ .

(٤) سورة الشعراء : الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٩٠ .

والآية في اللغة : العلامة .

الفائدة الثالثة : ﴿ الرحمن ﴾ رحمن الدنيا والآخرة و ﴿ الرحيم ﴾ رحيم الآخرة .

وقد أشار تعالى الى هذا حيث قال : ﴿ ثم استوى على العرش الرحمن ﴾[١] .

وقال ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[٢] .

فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته . قال ابن كثير ومثله قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن ﴾[٣] ، اي : ومن رحمانيته لطفه بالطير ، وإمساكه اياها صافات وقابضات في جو السماء .

ومن أظهر الأدلة في ذلك قوله تعالى : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾[٤] .

وقال : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[٥] ، فخصهم باسمه الرحيم .

فإن قيل جاء في الدعاء المأثور رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما ؟

الجواب : أن الرحيم خاص بالمؤمنين لكنه لا يختص بهم في الآخرة بل

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٥٩ .

(٢) سورة طه : الآية ٥ .

(٣) سورة الملك : الآية ١٩ .

(٤) سورة الرحمن : الآية ١ .

(٥) سورة الأحزاب : الآية ٤٣ .

يشمل رحمتهم في الدنيا أيضا . فيكون معنى رحميهما رحمته بالمؤمنين فيهما .

والدليل على أنه رحيم بالمؤمنين في الدنيا أيضًا : أن ذلك هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[١] ، لأن صلاته عليهم وصلاة ملاذكته وإخراجه إياهم من الظلمات الى النور رحمة بهم في الدنيا .

وإن كانت سبب الرحمة في الآخرة أيضًا وكذلك قوله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤف رحيم ﴾[٢] ، فإنه جاء فيه بالباء المتعلقة بالرحيم الجار للضمير الواقع على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، وتوبته عليهم رحمة في الدنيا وإن كانت سبب رحمة الآخرة أيضا .

الفائدة الرابعة : قوله ﴿ مالك يوم الدين ﴾ لم يبينه هنا ، وبينه في قوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ﴾[٣] الآية .

والمراد بالدين في الآية : الجزاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٣ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١٧ .

(٣) سورة الإنفطار : الآية ١٧ ـ ١٩ .

الله دينهم الحق ﴾[١] أي جزاء أعمالهم بالعدل .

الفائدة الخامسة : قوله تعالى ﴿ اياك نعبد ﴾ أشار في هذه الآية الكريم إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله، لأن معناها مركب من أمرين : نفي واثبات .

فالنفي، خلع جميع المعبودات والاثبات : إفراد رب السموات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع .

وقد أشار إلى النفي من لا إله إلا الله بتقديم المعمول الذي هو (إياك) .

واشار إلى الإثبات منها بقوله (نعبد) وقد بين معناها المشار إليه هنا مفصلا في آيات آخر كقوله : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾[٢] وصرح بالنفي منها في آخر الآية الكريمة بقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾[٣] وكقوله : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٤] .

فصرح بالاثبات بقوله ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ .

وبالنفي بقوله ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويومن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾[٥] .

---

(١) سورة النور : الآية ٢٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢ .

(٤) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

فصرح بالنفي منها بقوله ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾ .

وبالاثبات بقوله : ﴿ ويؤمن بالله ﴾ .

وكقوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني ... ﴾ الآية[١] ، وكقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي الله : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٢] وقوله : ﴿ وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات .

الفائدة السادسة : قوله تعالى : ﴿ وإياك نستعين ﴾ أي لا نطلب العون إلا منك وحدك ، لأن الأمر كله بيدك لا يملك أحد منه معك مثقال ذرة .

وأتيانه بقوله ﴿ وإياك نستعين ﴾ بعد قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ فيه اشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل الا على من يستحق العبادة :لأن غيره ليس بيده الأمر وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينًا واضحًا في آيات أخر كقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ... ﴾ الآية[٤] ، وقوله ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾[٥] ، وقوله : ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعلينا

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٥ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٤٥ .

(٤) سورة هود : الآية ١٢٣ .

(٥) سورة المزمل : الآية ٩ .

توكلنا ﴾(١) إلى غير ذلك من الآيات .

الفائدة السابعة : قوله تعالى : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ لم يبين هنا من هؤلاء الذين أنعم عليهم .

وبين ذلك في موضع آخر بقوله ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ ، فيؤخذ من هذه الآية الكريمة صحة امامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأنه داخل فيمن أمرنا الله في السبع المثاني والقرآن العظيم أعني الفاتحة بأن نسأله أن يهدينا صراطهم . فدل ذلك على أن صراطهم هو الصراط المستقيم . وذلك في قوله ﴿ أهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ ، وقد بين الذين أنعم عليهم فعد منهم الصديقين .

وقد بين ﷺ أن أبا بكر رضي الله عنه من الصديقين، فاتضح أنه داخل في الذين أنعم الله عليهم . الذين أمرنا الله أن نسأله الهداية الى صراطهم فلم يبق لبس في أن ابا بكر الصديق رضي الله عنه على الصراط المستقيم، وان إمامته حق .

(١) سورة الملك : الآية ٢٩ .

فصل

من فوائد الفاتحة أنها رقية

فقد روى الإمام أحمد ومسلم رحمهما الله تعالى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « نزلنا منزلاً ، فأتينا امرأة فقالت : إن سيد الحي سليم ، فهل منكم من راق ؟ قال : فقام معها رجل ماكنا نظن يحسن الرقية ، فانطلق معها فرقاها ، فبرأ ، فأعطوه ثلاثين شاة ، قال : وأحسبه قد قال وأسقونا لبنا فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية ، أو كنت ترقي ؟ قال لا ، ما رقيت إلا بأم الكتاب . قلنا : لا تحدثوا شيئا حتى نأتي أو نسأل النبيﷺ ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال (وما كان يدريه أنها رقية ؟ اقسموا واضربوا لي بسهم »[١] . وهكذا رواه مسلم وأبو داود .

وفي بعض روايات مسلم : أن أبا سعيد الخدري هو الذي رقى ذلك السليم يعني اللديغ، يسمونه بذلك تفاؤلا .

وروى مسلم والنسائي عن ابن عباس قال : « بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم . فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ولم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال : ابشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ بحرف منهما إلا اعطيته »[٢] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : ٣ / ٨٣ .

(٢) مسلم ، مسافرين ٨٠٦ ، ١ / ٥٥٤ ، مشكاة المصابيح ٢١٣٤ ، تفسير القرطبي ١ / ١١٦ .

(أحكام القرآن)

ملخصا من أقوال علماء المذاهب الأربعة مبتدأ بالأقدم زمنا منهم فالأقدم ومرتبا لذلك على ترتيب سور القرآن .

(أحكام الفاتحة)

قال أبو بكر الجصاص الحنفي من علماء القرن الرابع الهجري[١] : الكلام فيها من وجوه .

الوجه الأول[٢] : قال أبو بكر معنى الضمير الذي فيها . فيها ضمير فعل لا يستغني الكلام عنه لأن الباء مع ساتر حروف الجر لابد أن يتصل بفعل إما مظهر مذكور وإما مضمر محذوف، والضمير في هذا الموضع ينقسم إلى معنيين : خبر وأمر .

فإذا كان الضمير خبراً كان معناه ابدأ بسم الله فحذف هذا الخبر واضمر لأن القارئ مبتدىء فالحال المشاهدة منبئة عنه ومغنية عن ذكره .

وإذا كان أمرا كان معناه ابدأوا ببسم الله واحتماله لكل واحد من المعنيين على وجه واحد وفي نسق تلاوة السورة دلالة على أنه أمر وهو قوله تعالى ﴿ إياك نعبد ﴾ ومعناه قولوا إياك .

كذلك ابتداء الخطاب في معنى قوله بسم الله وقد ورد الأمر بذلك في

---

(١) نقل المؤلف ـ رحمه الله ـ عنه باختصار .

(٢) انظر أحكام القرآن للجصاص ، ص ٦ ،٧ .

مواضع من القرآن مصرحا وهو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾[١] ،.فأمر في افتتاح القراءة بالتسمية كما أمر أمام القراءة بتقديم الاستعاذة .

وهو إذا كان خبرا فإنه يتضمن معنى الأمر ، لأنه لما كان معلوما أنه خبر من الله بانه يبدأ باسم الله ففيه امر لنا بالابتداء به والتبرك بافتتاحه ، لأنه انما أخبرنا به لنفعل مثله ولا يبعد ان يكون الضمير لهما جميعا فيكون الخبر والأمر جميعا مرادين لاحتمال اللفظ لهما .

الوجه الثاني[٢] : قال أبو بكر هل هي من القرآن في افتتاحه لا خلاف بين المسلمين ان بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن في قوله تعالى : ﴿ أنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾[٣] وروى أن جبريل عليه السلام أول ما أتي النبي ﷺ بالقرآن قال له أقرأ قال ما أنا بقارىء قال له ﴿ أقر باسم ربك الذي خلق ﴾ .

وروى أبو قطن عن المسعودي عن الحارث العكلي ان النبي عليه السلام كتب في أوائل الكتب باسمك اللهم حتى نزل ﴿ بسم الله مجريها ومرسيها ﴾ فكتب بسم الله ثم نزل قوله تعالى : ﴿ قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن ﴾[٤] فكتب فوقه الرحمن فنزلت قصة سليمان فكتبها حينئذ .

(١) سورة العلق : الآية ١ .

(٢) انظر أحكام القرآن للجصاص ، ص ٨ .

(٣) سورة النمل : الآية ٣٠ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ١١٠ .

ومما سمعنا في سنن أبي داود ، قال : قال الشعبي ومالك وقتادة وثابت : أن النبي ﷺ لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة النمل وقد كان النبي ﷺ حين أراد ان يكتب بينه وبين سهيل بن عمرو كتاب الهدنة بالحديبية قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال له سهيل باسمك اللهم فانا لا نعرف الرحمن إلى أن سمح بها بعد فهذا يدل على أن بسم الله الرحمن الرحيم لم يكن من القرآن ثم انزلها الله تعالى في سورة النمل .

الوجه الثالث[1] : قال ابو بكر هل هي من الفاتحة أم لا فعدها قراء الكوفيين آية منها ولم يعدها قراء البصريين وليس عن أصحابنا رواية منصوصة في أنها آية منها إلا أن شيخنا أبا الحسن الكرخي حكى مذهبهم في ترك الجهر بها وهذا يدل على أنها ليست منها عندهم لانها لو كانت آية منها عندهم لجهر بها كما جهر بسائر أي السور .

وقال الشافعي : هي آية وان تركها اعاد الصلاة .

الوجه الرابع[2] : هل هي من أوائل السور أم لا قال ابو بكر ثم اختلف في أنها آية من أوائل السور أو ليست بآية منها على ما ذكرنا من مذهب أصحابنا انها ليست بآية من أوائل السور لترك الجهر بها ولأنها إذا لم تكن من فاتحة الكتاب فكذلك حكمها في غيرها إذ ليس من قول أحد أنها ليست من فاتحة الكتاب وانها من أوائل السور .

---

(١) انظر أحكام القرآن للجصاص ، ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩ .

وزعم الشافعي : أنها آية من كل سورة وما سبقه إلى هذا القول أحد لأن الخلاف بين السلف إنما هو في انها آية من فاتحة الكتاب أو ليست بآية منها ولم يعدها احد آية من سائر السور ومن الدليل على أنها ليست من فاتحة الكتاب حديث سفيان بن عيينة عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ان النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل ، فاذا قال : الحمد لله رب العالمين، قال الله : حمدني عبدي، وإذا قال : الرحمن الرحيم، قال : مجدنى عبدي ، أو أثنى عليّ عبدي، وإذا قال : مالك يوم الدين، قال : فوض إلي عبدي، وإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين، قال : هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فيقول عبدي : إهدنا الصراط المستقيم الى آخرها قال لعبدي ما سأل » .

فلو كانت من فاتحة الكتاب لذكرها فيما ذكر من أي السورة فدل ذلك على أنها ليست منها ومن المعلوم ان النبي ﷺ إنما عبر بالصلاة عن قراءة فاتحة الكتاب وجعلها نصفين فأنتفى بذلك أن تكون بسم الله الرحمن الرحيم آية منها من وجهين .

أحدهما : أنه لم يذكرها في القسمة .

الثاني : أنها لو صارت في القسمة لما كانت نصفين بل كان يكون ما لله فيها أكثر مما للعبد لان بسم الله الرحمن الرحيم ثناء على الله تعالى لا شيء للعبد فيه .

الوجه الخامس[١] : وأما القول في أنها آية أو ليست بآية، فإنه لا خلاف انها ليست بآية تامة في سورة النمل وأنها هناك بعض آية، وأن ابتداء الآية من قوله تعالى : ﴿ أنه من سليمان ﴾ ومع ذلك فكونها ليست اية تامة في سورة النمل لا يمنع ان تكون آية في غيرها لوجودنا مثلها في القرآن، فالأولي ان تكون آية تامة من القرآن من غير سورة النمل، لأن التي في سورة النمل ليست بآية تامة .

والدليل على أنها آية تامة حديث ابن ابي ملكية عن ام سلمة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة فعدها آية وفي لفظ آخر ان النبي عليه السلام كان يعد بسم الله الرحمن الرحيم آية فاصلة .

الوجه السادس[٢] : حكم قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة، وأما قراءتها في الصلاة ، فإن أبا حنيفة وأبا يوسف ومحمداً كانوا يقولون بقراءتها في الصلاة بعد الاستعاذة قبل فاتحة الكتاب .

واختلفوا في تكرارها في كل ركعة وعند افتتاح السورة ، فروى أبو يوسف عن أبي حنيفة أنه يقرأها في كل ركعة مرة واحدة عند ابتداء فاتحة الكتاب ولا يعيدها مع السورة عند أبي حنيفة وأبي يوسف .

وقال محمد والحسن بن زياد عن أبي حنيفة إذا قرأها في أول ركعة عند ابتداء القراءة لم يكن عليه ان يقرأها في تلك الصلاة حتى يسلم وان قرأها مع كل سورة فحسن .

---

(١) انظر أحكام القرآن للجصاص ، ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣ .

قال الحسن وان كان مسبوقا فليس عليه ان يقرأها فيما يقضي، لأن الإمام قد قرأها في أول صلاته وقراءة الإمام له قراءة .

قال أبو بكر وهذا يدل من قوله على أنه كان يرى بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن في ابتداء القراءة وأنها ليست مفردة على وجه التبرك فقط حسب اثباتها في ابتداء الأمور والكتب ولا منقولة عن مواضعها من القرآن .

وعن أبي يوسف قال : سألت أبا حنيفة عن قراءة بسم الله الرحمن الرحيم قبل فاتحة الكتاب وتجديدها قبل السورة التي بعد فاتحة الكتاب، فقال : أبو حنيفة يجزيه قراءتها قبل الحمد وقال أبو يوسف يقرأها في كل ركعة قبل القراءة مرة واحدة ويعيدها في الأخرى أيضًا قبل فاتحة الكتاب وبعدها إذا أراد أن يقرأ سورة .

قال محمد : فإن قرأ سورة كثيرة وكانت قراءته يخفيها قرأها عند افتتاح كل سورة ، وان كان يجر بها لم يقرأها لأنه في الجهر يفصل بين السورتين بسكتة .

قال أبو بكر وهذا من قول محمد يدل على ان قراءة بسم الله الرحمن الرحيم انما هي للفصل بين السورتين او لابتداء القراءة وانها ليست من السورة ولا دلالة فيه على انه كان لا يراها آية وانها ليست من القرآن .

وقال الشافعي : هي من أول كل سورة فيقرأها عند ابتداء كل سورة .

قال أبو بكر : وقد روى عن ابن عباس ومجاهد أنها تقرأ في كل ركعة.

وعن إبراهيم، قال : إذا قرأتها في أول كل ركعة اجزاك فيما بقى .

وقال مالك بن أنس لا يقرأها في المكتوبة سراً ولا جهراً وفي النافلة إن شاء قرأ وإن شاء ترك .

والدليل على انها تقرأ في سائر الصلوات حديث أم سلمة وأبي هريرة أن النبي ﷺ كان قرأ في الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين .

وروى انس بن مالك قال : صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يسرون بسم الله الرحمن الرحيم ، وقال في بعضها يخفون وفي بعضها كانوا لا يجهرون ومعلوم أن ذلك كان في الفرض لأنهم إنما كانوا يصلون خلفه في الفرائض لا في التطوع ، إذ ليس من سنة التطوع فعلها في جماعة .

وقد روى عن عائشة وعبدالله بن المغفل وأنس بن مالك أن النبي عليه السلام كان يفتتح القراءة بالحمد لله رب العالمين وهذا إنما يدل على ترك الجهر بها ولا دلالة فيه على تركها رأسا .

الوجه السابع [1] : في حكم الجهر بسم الله الرحمن الرحيم، وأما الجهر بها فان اصحابنا قالوا : يخفيها .

وقال الشافعي : يجهر بها .

وهذا الاختلاف إنما هو في الإمام إذا صلى صلاة يجهر فيها بالقراءة .

---

(١) انظر أحكام القرآن للجصاص ، ص ١٥ .

وقد روى عن الصحابة فيها إختلاف كثير ، فروى عمر بن ذر عن أبيه قال صليت خلف ابن عمر فجهر ببسم الله الرحمن الرحيم .

وروى حماد عن إبراهيم قال كان عمر يخفيها ثم يجهر بفاتحة الكتاب وروى عنه أنس مثل ذلك .

قال إبراهيم كان عبدالله بن مسعود وأصحابه يسرون قراءة بسم الله الرحمن الرحيم لا يجهرون بها .

وروى أنس أن أبا بكر وعمر كانا يسران بسم الله الرحمن الرحيم وكذلك روى عنه عبد الله بن المغفل .

الوجه الثامن[١] : في الأحكام التي يتضمنها قوله بسم الله الرحمن الرحيم الأمر باستفتاح الأمور للتبرك بذلك والتعظيم لله عز وجل به وذكرها على الذبيحة وشعار وعلم من اعلام الدين وطرد الشيطان لأنه روى عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سمى الله العبد على طعامه لم ينل منه الشيطان معه وإذا لم يسمه نال منه معه » وفيه اظهار مخالفة المشركين الذين يفتتحون أمورهم بذكر الأصنام أو غيرها من المخلوقين الذين كانوا يعبدونهم وهو مفزع للخائف ودلالة من قائله على انقطاعه إلى الله تعالى ولجأه إليه وأنس للسامع واقرار بالألوهية واعتراف بالنعمة واستعانة بالله تعالى وعياذة به .

(١) انظر أحكام القرآن للجصاص ، ص ١٧ .

وفيه اسمان من أسماء الله تعالى المخصوصة به لا يسمى بهما غيره وهما الله الرحمن .

الوجه التاسع[١] : حكم قرائته الفاتحة في الصلاة : قال أبو بكر الجصاص : قال اصحابنا جميعا يقرأ بفاتحة الكتاب وسورة في كل ركعة من الأوليين فان ترك قراءة فاتحة الكتاب وقرأ غيرها فقد أساء وتجزيه صلاته .

وقال مالك بن أنس إذا لم يقرأ أم القرآن في الركعتين أعاد .

وقال الشافعي : أقل مايجزى فاتحة الكتاب فإن ترك منها حرفا وخرج من الصلاة أعاد .

الوجه العاشر[٢] : قال أبو بكر الجصاص وقراءة فاتحة ا لكتاب مع ما ذكرنا من حكمها تقتضي أمر الله تعالى إيانا بفعل الحمد وتعليم لنا كيف نحمده، وكيف الثناء عليه وكيف الدعاء له ودلالة على أن تقديم الحمد والثناء على الله تعالى على الدعاء اولى واحرى بالاجابة لأن السورة مفتتحة بذكر الحمد، ثم بالثناء على الله وهو قوله ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ إلى ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ثم الاعتراف بالعبادة له وافراد هاله دون غيره بقوله ﴿ إياك نعبد ﴾ ثم الاستعانة به في القيام بعبادته في سائر ما بنا الحاجة اليه من أمور الدنيا والدين وهو قوله ﴿ إياك نستعين ﴾ ثم الدعاء بالتثبيت على الهداية التي هدانا لها من وجوب الحمد له واستحقاق الثناء والعبادة لأن

---

(١) انظر أحكام القرآن للجصاص ، ص ١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣، ٢٤ .

قوله ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ هو دعاء للهداية والتثبيت عليها في المستقبل إذ غير جائز ذلك في الماضي وهو التوفيق عما ضل عنه الكفار من معرفة لله أو حمده والثناء عليه فاستحقوا لذلك غضبه وعقابه .

والدليل على أن قوله تعالى ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ مع أنه تعليم لنا الحمد هو امر لنا به قوله (اياك نعبد واياك نستعين) فاعلم ان الأمر بقول الحمد مضمر في ابتداء السورة وهو مع ما ذكرنا رقية وعوذة وشفاء ، ولهذه السورة اسماء منها أم الكتاب لأنها ابتداؤه .

وقال الشاعر :

* الأرض معقلنا وكانت أمنا *

فسمى الأرض اما لنا لأنه منها ابتدأنا الله تعالى وهي أم القرآن . وكذلك فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني .

قال سعيد بن جبير سألت ابن عباس عن السبع المثني فقال : السبع المثاني هي أم القرآن .

وإنما أراد بالسبع أنها سبع آيات ومعنى المثاني أنها تثنى في كل ركعة وذلك من سننها وليس من سنة سائر القرآن إعادته في كل ركعة .